محمد صلاح العزب
ستديو ريهام للتصوير
مجموعة قصصية
الدار المصرية اللبنانية

محمد صلاح العزب

ستديو ريهام للتصوير

مجموعة
قصصية

الدار المصرية اللبنانية

إهـداء

إلى «فرح»

قُبلثها المفاجئة.. وحضنها الصغير الطيّب.. الدليل

الأجمل

على أن اللّه ما زال يحبني

أم محمود

حمل أبو محمود أنبوبة البوتاجاز التي انتهت بيديه من مقبضها وقاعدتها ثم رجها بقوة كأنها زجاجة دواء كبيرة، ثم أوقفها مقلوبة على رأسها وأشعل عود الكبريت الأخير وقرّبه من عين البوتاجاز فلم تشتعل، فظل يدور بالعود مشتعلا حول العين المطفأة حتى قارب أن يلسع أصابعه فهزه بقوة في الهواء وهو يشتم أم محمود لأنها لم تستبدل الأنبوبة قبل أن تفرغ، وقال:

- «يعني هو الواحد ميعرفش يشرب أم كباية شاي في أم البيت ده؟».

ثم ضرب الأنبوبة المقلوبة بقدمه بقوة فسقطت على الأرض، واتجه إلى الباب وخرج وأغلقه خلفه بعنف أسقط النتيجة المعلقة بجواره، كان مكتوبا عليها: **«إن ينصركم الله فلا غالب لكم»** أخوكم وابنكم السيد لطفي مرسال عضو مجلس الشعب عن دائرة بولاق الدكرور الدورة المقبلة بإذن الله، وفي الخلفية صورة كبيرة للمرشح مركبة بالفوتوشوب وهو يقف في منصة البرلمان.

قامت أم محمود من جلستها على الأرض بجوار الكنبة، واتجهت إلى الأنبوبة، تحيرت هل توقفها على رأسها كما قلبها أبو محمود أم تعدلها على قاعدتها، وفي النهاية أوقفتها مقلوبة على رأسها، ثم اتجهت إلى ورقة النتيجة وعلقتها في المسمار مرة أخرى.

لم تكن هناك أوراق نتيجة في اللوحة الكرتون التي تحمل صورة المرشح ومر على طباعتها ثلاث سنوات، رسب فيها أخوكم وابنكم السيد لطفي مرسال صاحب مخبز الحرمين في المطبعة فيصل ونجح منافسه مختار الحسيني صاحب محلات كشري الشبح.

استدارت أم محمود لتعود إلى مكانها بجوار الكنبة مرة أخرى، لكن الأنبوبة لم تستقر جيدا في الوضع الذي تركتها فيها فسقطت محدثة دويا جعلها تنتفض وهي تتفل في عبها وتقول: **بسم الله الرحمن الرحيم**.

مر أبو محمود من أمام مقهى «عش البلبل» أكثر من مرة يفتش عن أي شخص يعرفه يمكنه أن يجلس معه ويشرب شايا دون أن يحاسب، فلم يجد، فذهب إلى عطيّة الموّان ليسأله إن كان أحد الزبائن سأل عنه، أو عن أي مصلحة أو شغل، فوجد زحاما أمام المحل ولم يجد بالداخل سوى بهاء ابن عطية الكبير، سأله عن أبيه فقال له:

- طلع ينام.

وحين استدار لينصرف ناداه بهاء:

- كان فيه زبون بيسأل عليك.

- فين هو؟

- مشي.

- إنت عارفه؟

- لأ.

- طب ما سابش نمرته؟

- لأ.

- طب ماوصفتلوش البيت؟

- لأ.

أراد أبو محمود أن يطيل الكلام أكثر مع بهاء حتى يصل إلى هذا الزبون أو يعرف واحد من الواقفين أنه نقاش فيطلب منه عملا، لكن بهاء انشغل بالزبائن وظل يغيب طويلا داخل المحل حتى يخرج بعلبة لاكيه أو جالون بلاستيك.

سار أبو محمود بلا هدف، وكل قليل ينخلع إصبع الشبشب الذي يرتديه ويسقط من قدمه فينحني ويتناوله ليحشر الإصبع في الثقب الذي صار متسعا عليه ويرميه ثم يدخل رجله فيه، أخذته قدماه إلى الزحام قبل مزلقان أرض اللواء، حتى وصل إليه نداء صبية الميكروباصات: «خشب.. مترو.. خشب»، و«دقي جيزة.. دقي جيزة».

شعر أنه لن يستطيع السير أبعد من هذا لأنه لم يستخرج بطاقة الرقم القومي، وإذا استوقفه أمين شرطة وسأله عن بطاقته فربما يمد يده عليه أو يأخذه إلى القسم، فاستدار راجعا إلى أرض اللواء.

اليوم يمر عليه أربعة أشهر تقريبا لم يعمل فيها، باع الموبايل وحلق زوجته وجلبابا أبيض أعطاه له زبون

هدية بعد أن جاء من العمرة، واقترض 300 جنيه من عطية الموان و150 جنيها من صبيه علاء الذي صار أسطى يطلبونه بالاسم، طلب منه أبو محمود أكثر من مرة أن يأخذه على جناحه إذا جاء عمل، وحتى ينفي أي حرج قال له بمزاح وهو يخبطه على ظهره:

- واعتبرني أنا يا عم اللي صبي تحت إيدك وشغلني باليومية.

لكن علاء لم يطلبه في أي مقاولة، وصار يتهرب منه حين يطلبه من موبايله قبل أن يبيعه ولا يرد، وإذا رآه مصادفة بعدها وعاتبه يقول له:

- معلش يا اسطى أصلي كنت شغال والموبايل بيبقى بعيد عني.

كف أبو محمود عن مطاردة علاء، ورفض عطية أن يقرضه مرة أخرى، لكنه وعده بأن يدل الزبائن عليه.

أحس بالجوع لكنه تجاهل ألم بطنه وشعر أن رأسه ستنفجر إذا لم يشرب شايا ويدخن سيجارة، لمح مسمارا صغيرا في الأرض فانحنى عليه وتناوله ورفع فردة الشبشب المقطوعة، ثقّب إصبع الشبشب من أسفل النعل ودس فيه المسمار ثم ألقاه وجربه، صار أضيق لكنه ضمن أن الإصبع لن ينفلت مرة أخرى.

وقف أمام محل موبايلات مستعملة، وسأل عن سعر عدة نوكيا 1110 فقال له البائع: 70 جنيها، فأومأ له برأسه وانصرف، وبمجرد أن خرج من المحل كاد

يصدمه توك توك مسرع لم ينتبه له رغم أنه يشغّل بصوت مرتفع جدا أغنية: «دنيا ملهاش عازة، الصحاب في أجازة»، فشتم التكاتك ومن اخترعها في سره.

سار إلى المقهى مرة أخرى، وهو يفكر أنه لم يرسل نقودا لابنه محمود في الجيش حتى يمكنه نزول أجازة مثل زملائه بعد أن أرسل محمود يطلب نقودا مع أكثر من مرسال، وقف أمام باب المقهى فلمح عطية الموان يجلس بالداخل مع ثلاثة رجال لا يعرفهم وأمامهم أربع علب سجائر 3 مارلبورو أحمر وواحدة روثمان وأربعة أكواب شاي ثقيل، تردد ثم دخل، وقف بجوار عطية وقال:

- «السلام عليكم يا حاج عطية».

ردّ عطية السلام فقط، وواصل كلامه مع الجالسين معه، وأبو محمود واقف لا يدري ماذا يفعل، فسحب نفسه ببطء إلى داخل القهوة، ثم وقف أمام المبولة وفتح بنطلونه وحاول فلم ينزل شيء، ثم مر على عطية وهو راجع فلم يكلمه، فخرج.

ظل أبو محمود يدور في شوارع أرض اللواء حتى هدّه التعب فعاد إلى البيت، طرق الباب وحين فتحت له زوجته، سبها بأمها وأبيها لأنها تأخرت عليه في فتح الباب، وخلع حزام بنطلونه وظل يضربها به، وهي تجري أمامه وتدافع عن نفسها بأنها لم تتأخر، وأنه لم يطرق سوى مرة واحدة، سقطت النتيجة مرة أخرى وهو

يجري وراءها، ولم يتوقف عن ضربها إلا حين شعر بالتعب، وانزوت هي في ركن الحجرة تبكي، فدخل الحمام وحاول أن يتبول مرة أخرى فلم ينزل شيء، فخرج وسألها:

- «إنتي كلتي حاجة؟».

فأجابته بأنها لم تأكل منذ الأمس، وواصلت بكاءها، فقال لها:

- «طب اخرسي مش عاوز أسمع صوتك، أنا هنام».

وتمدد على السرير بملابسه.

سمعت صوت شخيره فقامت من مكانها وأعادت النتيجة إلى مكانها وأدخلت الحزام الذي كان يضربها به في البنطلون مرة أخرى، وركنت شبشبه بجوار الباب، وخافت أن تصعد إلى السرير لتنام بجواره فتوقظه ففرشت سجادة الصلاة ونامت فوقها على الأرض.

البلاستيدات الخضراء

كانت المرة الأولى التي ترى فيها امرأة عارية.

دخل الأستاذ ناصر ظريف الفصل في أول حصة، وقال:

- أنا طول عمري رافض مبدأ الدروس الخصوصية.. بس لقيت إنها ضرورية لتحسين مستوى الطلبة، فبدأت أديها.. لكن من غير ما ده يأثر على شرحي في الفصل.

شكله أنظف من بقية المدرسين، ببنطلونه الجينز، وحذائه الأديداس، وسيارته السيات الصغيرة.

لم يعد يشرح في الفصل نهائيًا، وفي كل فصول أولى ثانوي لم يدخل غيرك درس الأحياء الخصوصيّ.

شقته واسعة ومرتبة، ويعطيك الدرس في غرفة مكتب أنيقة، لم تفهم منه، ولكنه وعدك بأنه سيخبرك بعلامة تضعها في ورقة الامتحان؛ حتى ينجِّحك.

كل مرة ترى الشقة هادئة ونظيفة، فسألته:

- أمال فين ولاد حضرتك؟!

أشعل سيجارة كليوباترا بوكس، وهو يقول:

- ربنا ما أذنش.

يكمل لك الإجابات الناقصة في امتحانات الشهور، ويعطيك الدرجة النهائية؛ لأن كل الفصل يعرف أنك الوحيد الذي دخلت عنده.

وعندما علم أنك تدخن صار يعزم عليك بالسجائر، ويقول:

- أنا أحب أبقى أنا وطلابي أصدقاء.

تتبادل أنت وزملاؤك الصور الجنسية، ويحكي أصحاب الخيال الواسع منكم عن تجارب مكتملة أو مبتورة، كلٌّ حسب خياله.

لكنك لم تتصور أبدًا أن ترى امرأة حقيقية عارية تمامًا، على بعد عدة أمتار، تتحرك جيئة وذهابا.

منضدة مستطيلة تتوسط غرفة المكتب، يعطيك الدرس عليها، كانت في الأصل ترابيزة سفرة من طراز قديم.

يجلس هو بجوار الباب ووجهه لك، وتكون أنت مواجهًا لفتحة الباب الموارب، ترى جزءا من سجادة الصالة، وكرسي أنتريه، ولوحة معلقة على الحائط بها قارب وصياد وشجرة نابتة في وسط النهر.

يشرح لك درس «الخلية النباتية»، وبينما هو مندمج في الرسم، تمر زوجته بالصالة، عارية تمامًا، ومبلولة، يلتصق شعرها الأسود القصير برقبتها وظهرها وهو يردد:

- البلاستيدات الخضراء.

سمينة وطويلة، تسير وظهرها لك، ثم تنحني وتلتقط الفوطة من على الأرض، تستدير، فتراها بالكامل من الأمام، وتأتي عيناها في عينيك، ثم تختفي.

أخبرت كل زملائك بما رأيت، وبأن الأستاذ ناصر ظريف عاجز جنسيًا، بدليل أنه لم ينجب حتى الآن، وقد تجاوز الأربعين، ومن واحدة مثل زوجته.

دخل كثير من فصلك درس الأحياء، وصرت تذهب إلى الدرس مع مجموعة، وصار هو يغلق باب المكتب؛ حتى لا تتسرب الضوضاء إلى المدام بالخارج، كان يناديها في أثناء وجودكم بـ «يا ناصر».

لكنك عرفت أن اسمها «ميادة» من أمها التي زارتهم مرة، وكل قليل تقول:

- يا ميادة.. يا بت يا ميادة.

في حين أسميتها أنت وزملاؤك: «البلاستيدات الخضراء»!، وصارت كلمة السر بينكم للإشارة إليها، وكان الولد أحمد عاطف حتى يضحككم يقول للأستاذ ناصر ظريف:

- البلاستيدات الخضراء حلوة قوي يا أستاذ!

كل واحد منكم يتخيل نفسه معها وهي في الوضع الذي حكيته لهم، أنت الوحيد الذي رأيتها هكذا، ولمرة واحدة، أما هم فلم يروها إلا بجلباب البيت العادي، إلا أن سمنتها الخفيفة مناسبة لتحريك خيالهم.

تضايقت لأنك أخبرتهم، فباب المكتب لم يفتح من يومها، لكنك صرت تحلم بها ليل نهار، أحببتها وأحببت درس الأحياء، صرت تنتظره بفارغ الصبر.

في وسط الدرس قلت:

- لو سمحت يا أستاذ.. عاوز أروح الحمام.

تخيلت أنه سيقول لك: اذهب. فتخرج لتجدها على الصورة التي لا تتخيلها إلا بها، وهي مبلولة، لكنه قال:

- حاضر.

خرج قليلا، وأغلق الباب خلفه، ثم رافقك حتى رجعت من الحمام، لمحت في الصالة بواقي تفاح، وقشر موز، وكان التليفزيون مفتوحا على فيلم أجنبي في الدش. أثار تفرجها على الدش خيالك، وأقنعت نفسك أن المطلوب منك فقط أن تنفرد بها، وستقوم هي بالباقي!

في الفسحة قفزت من على سور المدرسة، ركبت متوجها إلى بيت الأستاذ ناصر وقلبك يدق بعنف، تفكر في ملمس شعرها الناعم المبلول.

لم تضغط على الجرس، طرقت طرقة واحدة، وانتظرت حتى فتحت لك، ترتدي معطف نوم أصفر محبوكا حول جسدها، ووجهها يحمل آثار النوم، خمنت أنها لا ترتدي شيئا تحته، قلت:

- الأستاذ ناصر موجود؟

هزت رأسها بالنفي.

- الصراحة أنا غبت النهاردة من المدرسة.. الصراحة حسبت الأستاذ هنا.. وجيت له يشرح لي الدرس اللي فات.. الصراحة لم أفهم الدرس الماضي...

وهي صامتة تنظر إليك، وتدرك أنت أن كذبك مفضوح؛ لأنك مرتبك، وترتدي ملابس المدرسة، وتحمل الحقيبة. قلت:

- طيب ممكن أستناه.. هو زمانه في الطريق.

تركت لك مسافة لتمر، ثم أغلقت خلفك، ودخلت حجرة النوم، أثارك تثنيها وهي منصرفة. وأنت مرتبك تخشى أن يكون دخولها إلى غرفة النوم دعوة لك، فتقول عليك «عبيط» إذا لم تدخل. لكنك تخاف أن تقوم.

عادت، وجلست على طرف الكنبة القريب منك، قالت:

- ممكن أطلب منك حاجة؟

حاولت أن تنظر على ركبتها أو فتحة صدرها وأنت تهز لها رأسك بالموافقة، قالت:

- عاوزة مجلة نص الدنيا.

ووصفت لك أكثر من بائع جرائد. شعرت برجولتك تتضاءل وهي تعطيك ثمن المجلة، لم يكن بجيبك سوى أجرة الرجوع، تمنيت لو تقول لها بفخر:

- لا والله معايا.

لكنك أخذت منها النقود في انكسار، وأنت نازل السلم قالت لك بصوت رفيع:

- ربنا يخليك متجيش إلا وهي معاك!

عرقان، وملابسك متربة، بيدك المجلة التي أحضرتها من البائع البعيد.. يقابلك الأستاذ ناصر ظريف نازلا من السيارة يغلق بابها، حذاؤه الأديداس أبيض، وغال، ووجهه أحمر، قال لك:

- إبقى تعالى مع زمايلك.. أنا مشغول اليوم.

ناولته نصف الدنيا، أعطاك ظهره، واختفى في مدخل البيت!

قميص خفيف دون أكمام

في الثانية عشرة مساء تُغلق النافذة.

أجمل الطالبات الريفيات اللاتي يسكن الشقة المقابلة، بعيون زرقاء وشعر عسلي، تفتح نافذتها في السابعة صباحًا، تبدأ يومها بالاستحمام، تجلس أمام المرآة تصفف شعرها الطويل، وتربطه ذيل حصان، تضع الكريم المرطب على بشرتها، وتسكب عطرا كثيرا على شعرها وصدرها ورقبتها ولا تستعمل إلا يدا واحدة.

ستقابلها مرتين وتعرف بالملاحظة أن ذراعها اليسرى مبتورة، وتعرف أن لها حجرة مستقلة في شقة الطالبات المغتربات اللائي يسكنَّ كل ثلاث في غرفة، وأنها تحب الأغاني الشعبية.

ترتدي قفازين حتى لا تظهر الأصابع البلاستيكية للذراع الصناعية، ستحاول أن تنبش روحها، لكنها تظل صامتة، تسمع فقط وتشرد بنظراتها، ولن تسمح لك بأن تمسك يدها السليمة.

في السابعة صباحًا تُفتح النافذة، وتُغلق في الثانية عشرة مساء، ولن تخبرك عن العلاقات الحسية بينها وبين البنات بالداخل، ولا عن كمها الأيسر المتهدل لمدة سبع ساعات فقط يوميًا.

مر موكب الفرح فأطلّت البنت، بعد منتصف الليل بساعة، اندفعت نحو النافذة لترى العروس داخل السيارة المزينة، فتحتها بيد واحدة، وبقميص نوم

خفيف من دون أكمام، فرأيت الذراع اليسرى مقطوعة على بعد أربع أصابع من الكتف.

أطلّت البنت عندما سمعت أبواق سيارات الفرح، اندمجت، ولم تنتبه إلى وجودك ولا إلى اختفاء ذراعها الصناعية إلا بعد أن صار الفرح أصواتا بعيدة.

صفقت البنت النافذة، وأنهت علاقتها بك بعد لقاءين وعلبة عصير مانجو رفضت هي أن تشربها. لكنها منحتك صورة لها، هي الأجمل بين الفتيات، بعينين رماديتين وشعر أصفر، فبدت كأنها أخرى، ولم تكن ابتسامتها مقنعة.

ستحاول أنت كثيرا أن تعيد علاقتك بها، لكنك ستعرف أنها لا تسمح لأي رجل بأن يعرف أن ذراعها مبتورة، وأنت رأيت.

بعد ذلك ستصادق أنت «منى»، البنت الأقبح في شقة المغتربات، وستعرف منها كل شيء عنها، «رشا العجمي»، البنت التي تركت الإسماعيلية، وأحبت القاهرة؛ لأن أحدا بها لا يعرف حادث السيارة وهي صغيرة، صارت تتحرك وتتعامل كأنثى كاملة، وإن ظل الشيء مبتورا داخل روحها، أشبعت كل حاجاتها الحسية مع البنات في غرفتها المستقلة المطلة على شارع جانبي صغير في مقابل حجرتك.

ستخبرك «منى» بأنها دربتهن على أن تتسلل واحدة منهن إلى حجرتها كل ليلة بعد الثانية عشرة، تبيت معها

حتى الصباح، دون أن يتكلمن في ذلك نهائيًا، حيث تغلق في الليل كل الأنوار عدا نور حجرتها.

ستدبر لها عدة مكائد حتى تعيد علاقتك بها، لكنك تفاجأ بأن المنطقة كلها صارت تعرف القصة، وقد صارت لشقة المغتربات رائحة نفاذة يميزها الجميع.

طوال النهار تظل النافذة مفتوحة تتحرك بداخلها فتاة أشبه ما تكون بالملائكة، بذراعين، وقفازين، وذيل حصان، وبلوزة حريرية بأكمام طويلة، وأنت تحلم بالجلوس على طرف سريرها، تشم عطرها الكثير، تلمس أنامل قدميها، تداعب ذيل الحصان، تفك أزرار بلوزتها، وأحزمة الذراع المستعار.

في الثانية عشرة مساء، تُغلَق النافذة، بينما يظل النور مضاء!

رجل واحد فقط

«كان ياما كان».

وكانت جالسة على الأرض مستندة إلى الحائط، وكنت مستلقيا على جنبي، رأسي مرتاحة على فخذها، ووجهي إلى بطنها، رائحتها العبقة، وأصابعها التي تتخلل شعري تخلق أجواء الحكاية.

«ولا يحلو الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام.. هذا الظلام لم يكن، ولم يكن الشكل القبيح، ولا الصوت القبيح، ولا الكذب، ولا الطعم المر.. تعرف؟ حتى القلب الأسود لم يكن موجودا».

أصعد إليها، أجد ابتسامتها، وحضنها الدافئ، أتقدم منها صامتا، أجلس إلى جوارها، أول ما تضع ذراعها على كتفي:

- سارة.. سارة احكي لي.

«كانت الدنيا بيضاء ناصعة، وكانت السحب، والجبال المكسوة بالخضرة، والخضرة، وكان كل اليوم نهارا، والقمر من الشمس على مرمى حجر».

يوميًا، أول ما أسمع أذان المغرب من الجامع القريب أجري إلى أختي الكبرى، تفتح مرآة الدولاب الكبير، وتخرج الشماعة السوداء معلقا عليها البدلة البنية التي أحضرتها سارة لي.

أرتدي البدلة، وتصفف لي أختي الوسطى شعري، وتضع لي زيت شعر من زجاجتها، أنظر في المرآة وأصعد جاريا، فأسمع صوت الصغرى:

- لا تقل لها يا سارة هكذا.. قل يا «طنط».

«ولم يكن فوق هذه الأرض الكبيرة الكبيرة إلا رجل واحد.. واحد فقط».

- سارة احكي لي.. احكي لي.

تصمت، وتشرد بنظرها.

- ما لك يا سارة.. كل مرة تبدين حزينة.

قالت - وهزت رأسها:

- صغير.

- سأفهم.

تنهدت، ثم تكلمت طويلا عن عيني الولد، وعن ساعدي الولد.

«النساء كن كثيرات، نساء سمراوات، شقراوات.. طويلات، قصيرات.. كلهن حسناوات، وطيبات».

تكلمت أيضا عن صمت الولد.

قالت: فهمت؟

- كلا.

قالت:

- صغير.

- يا سارة.. أحفظ هذه الحكاية، كل مرة تحكينها لي.

«في كوخه البعيد، في قمة الجبل العالي اختار الرجل مقامه.. يقطع الأخشاب، يرققها، ثم يصطنع لنفسه ألوانا كألوان الزهرة، والشجرة، والسحابة السائرة.

يجلس ليرسم، فتبين الزهرة كالزهرة، والشجرة كالشجرة، والسحابة كأختها التي في السماء».

على الحائط صور كثيرة لسارة معلقة داخل أطر ذهبية، صورها وهي صغيرة بالأبيض والأسود.

تبدو جميلة في الصور، أتحير وأظل أفكر.. أهي أجمل في الصور أم في الحقيقة؟!

«عندما يريد أن يأكل أو يشرب.. يرسم غزالة، وعين ماء، وعنقودا من العنب، ثم يبتهل، فيخرج له اللحم الطيب، والماء العذب، ويمد يده فيتناول قوارير الشراب المعتق».

واصلت كلامها عن الولد، قالت وحده القادر على أن يحمل إليها الفرح.

- يا سارة.. أعرف حكاية الولد، أريد حكاية أخرى، ألا تعرفين حكايات أخرى؟

احكي لي حكاية الجني، أو حكاية القصر الذي فيه ملك وفيه سجن وفيه بستاني.. حفظت حكاية الولد.

لم تهتم بكلامي وتابعت حديثها، تململت وألقيتُ برأسي على صدرها معترضا وغاضبا.

- سأمضي.

قالت - وأراحت رأسي على فخذها ففردت جسمي -:

- لو قلتَ ذلك غضبتُ منك.

«النساء كن يعلمن بوجوده في قمة الجبل، ويعلمن أنه لا يعلم بوجودهن، فصرن يتسللن إليه وهو نائم يتأملنه، ويتفرجن على لوحاته.

بعد أن يرجعن تتحسس كل واحدة النور الذي نبت داخل صدرها».

تأخذ نفسا عميقا، فينضغط وجهي في بطنها، وتتهدهد رأسي المستنيمة على فخذها مع الهزات الخفيفة المتتابعة.

«كن يعلمن أنه لا يعرف ما المرأة، ولا ما فم المرأة، ولا ما شعر المرأة».

كمن يبتسم، أو كمن يذكر ألما تعيد رأسها إلى الوراء، يسقط الضوء على رقبتها التي تزداد بياضا يتحرك مع الكلام.

«في مرة تسللن إليه، وجدنه قَلَب وجوه كل اللوحات إلى الجدار، ورأين لوحة جديدة أخفاها بين صدره والفراش، عليها بطول الجسد رسم لوجه فتاة».

توقفت عن هدهدة رأسي عندما لمحت نظرتي العاتبة، داعبت أناملها شعري، وجانب وجهي.

قالت:

- سأحكي لك.

ابتسمتُ.

قالت:

- انتبه حتى تفهم.

«عندما رجعن اكتشفت كل واحدة داخل صدرها نقطة سوداء تأكل النور».

صمتت طويلا، صمتُ أنتظر أن تبدأ الحكاية.

«تساءلن طويلا، ولم تعرف إحداهن من تكون الفتاة في اللوحة.

صعدن إليه، تمددن حوله وهو مأخوذ، فردت واحدة شعرها على آخره فكان الليل، وكشفت واحدة نهدها، فتلون الليل نهارا بشمس وسحب، وعندما غنت التي تخجل عندما يمتدحون صوتها، غردت الطيور و...».

- وماذا فعل؟

تنهدتْ حتى أحسست بصيف شديد:

- ليتني أعرف.

بنت أخرى تمر

يبدو من هيئة البنت أنها تقف في انتظار ولد ما.

أول ما فكرتَ فيه أن تدقق النظر في يديها، لم يكن ذلك سهلا، فالبنت المتوترة من طول الانتظار لم تترك يديها مباحتين لنظرك؛ مرة تشبكهما خلف ظهرها، ومرة تضعهما داخل جيبي الجاكت القصير الذي ترتديه، ومرة تسوي ملابسها من الخلف.

لكنك في النهاية أدركت أنها لا تلبس خاتم خطوبة أو زواج.

لم تكن جميلة، وطريقة ربطها لشعرها الخشن تجعلها تبدو كطفلة في الابتدائية لم تهتم أمها بتصفيف شعرها، وبنطلونها الجينز محبوك على فخذيها فبدت ممتلئة قليلا.

ضبطتك وأنت تتأمل جسدها دون أن تظهر أنها تضايقت، أشحت بوجهك، وظل كل منكما يختلس النظرات إلى الآخر ليرى هل ينظر إليه أم لا. وعندما تتلاقى النظرات يصطنع كل واحد كأنما لم يكن ينظر.

لم يكن موقف الأتوبيسات الذي تقفان فيه مزدحمًا، وبائع المناديل كلما مر بكما ينظر إلى جسدها، وينادي على بضاعته، فشعرت أنه يفهم ما بداخلك تمامًا.

مر بعض الوقت، تململت البنت وأكثرت من النظر في ساعتها، وظلت تتمشى في حيز مترين أو ثلاثة،

فأتاحت لك رؤية جسمها من جميع الزوايا.

لو أنها تنتظر ولدا لا يأتي، فتنتقم منه بأن تذهب معك.

بدأت تشد أطراف شعرها المجعد في عصبية متشاغلة عنك، وبائع المناديل يواصل نداءه اللزج وليس هناك غيركما تقريبا.

فكرت أنها صيدك الليلة، ولن تدعها تفلت تحت أي ظرف، اقتربت منها قليلا مركزا نظرك في عينيها.

تبادلت معك نظرات قصيرة، وعندما أتت حافلتك لم تركب، وتمنيت لو ترجو بائع المناديل فيكف قليلا عن الصياح.

تحركت هي ببطء إلى الكشك القريب، أعطتك ظهرها وهي تتكلم في التليفون حتى لا تفهم ما تقول، بدت حركاتها عصبية، وانفعالها يتغير بسرعة بين الغضب والهدوء، حتى أغلقت السماعة بقوة ضايقت صاحب الكشك، وانصرفت ناسية أن تدفع للرجل النقود، فترك مكانه وخرج مندفعًا خلفها.

وجدتها فرصتك، تدخلتَ لتهدئة الرجل، تناولتَ منها النقود وأعطيتها له، وهي تقريبا منفصلة عنكما، اقترب بائع المناديل وقد أشعل سيجارة وكف عن ندائه السمج على المناديل المعطرة.

سرت خلفها مبتعدا عن البائعَيْن اللذين تضامنا في سب زبائن هذه الأيام.

اقتربتَ منها وقلت:

- راجل لسانه طويل.

فلم ترد عليك، وأبطأت قليلا، فكرت هل تكمل السير خلفها أم تتراجع.

قلت:

- بس إنتي معذورة... شكلك سمعت خبرا وحش في التليفون.

لم ترد عليك وأسرعت من مشيها، حتى سارت بخطوة عادية وكأنك غير موجود.

وقفتَ للحظة لا تدري ماذا تفعل، وهي تواصل الابتعاد عنك، حتى جلست على آخر كرسي في المحطة وهي شاردة.

جلس بائع المناديل مع صاحب الكشك وفي يد كل منهما زجاجة مياه غازية، وأتت امرأة عجوز تطلب أي حسنة فلم تعطها شيئا وقلت لها:

- ربنا يسهل لك يا حاجة.

صرفت من ذهنك صورة البنت، وقررت أنك لن تكلمها، وعندما أتت حافلتك ركبت، كانت المرأة العجوز قد وقفت إلى جوارها، فتحت البنت حقيبة يدها ودست في يدها شيئا.

صعد بائع المناديل إلى الحافلة التي لم يكن بها سواك، وظل ينادي على مناديله الناعمة، والحافلة

منصرفة لمحت البنت تبحث عنك بعينيها في الميدان الواسع.

ليسانس حقوق

هذه البنت لن تنساها بسهولة كغيرها.

البنت التي تعمل محامية تحت التدريب في مكتب محام كبير، والتي طلبت منك أن تعطيها دروسًا في اللغة العربية حتى لا تخطئ في المرافعات.

ترتدي حذاء بكعب عال، ولا تفضل أن تحدث أحدا وهي واقفة، حتى لا تضطر أن تمد رأسها إلى أعلى، ولا تصاحب البنات الطويلات.

البنت كانت نبيهة وفرقت بسرعة بين المرفوع والمنصوب، ولم تسمح لك في أثناء الدرس إلا بأن تمسك يدها في غفلة من أمها العجوز التي تفضل اقتحام غرفة الدرس عليكما بلا استئذان.

كان أبوها ميتا، والراتب الصغير الذي تأخذه من المكتب لا يكفيها وأمها وأختها الصغيرة، فاتفقت معها بعد أربع حصص أنك لن تأخذ منها نقودًا، وبعد سبع حصص كنت تعطيها نقودًا، وتشتري أشياء للبيت وأنت قادم عندهم، وتقول:

- أنا بقيت بعتبر نفسي واحد منكم.

فتبتسم العجوز وتراك زوجا لا بأس به لابنتها.

تظل محافظة على الكعب العالي في البيت، وتتركك تجلس على كنبة الأنتريه المنخفضة، وتجلس هي على

كرسي سفرة مرتفع؛ فتبدو أطول منك، وتحادثك وهي تنظر إلى أسفل.

في أثناء الدرس تقول إنها تود لو تعمل (دايت)؛ لأن وزنها أكثر من طولها بحوالي 15 كيلو، تحبك ثوبها حول جسمها وتستدير أمامك، وتقول:

- يعني.. مش تخينة قوي.

فتومئ لها بالإيجاب وأنت لا يعجبك جسمها.

تخرج بفستان تحت الركبة، وشعر أسود طويل، وأكلاسير جلدي، تخلع نظارتها الشمسية وتلقي التحية على كل راكبي ميكروباص رمسيس، فيرد السائق وحده:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

فتفضل دائما الجلوس في أول كرسي إلى جوار الشباك.

عندما أيقنت البنت أنك بدأت تهملها وتتهرب منها صارت تسمح لك بأن تتعامل مع جسدها بشكل أكبر، وصارت تتمشى معك على الكورنيش، وتغلق باب حجرة الدرس لأن صوت التليفزيون عال، فتقفان بجسديكما خلف الباب وأنت تقبلها حتى لا يفتح على غفلة!

يبدو أن البنت التي ارتدت في هذا اليوم قميصا أبيض تحت جاكيت بني، أدركت تماما أنها خاسرة في هذه العلاقة، فبدأت البحث عن شخص آخر مناسب، وقالت لك بصراحة إنها لا ترغب في رؤيتك مرة ثانية،

كنت توصلها، أركبتها الميكروباص ووقفت من أسفل تحادثها من الشباك فأظهرث كأنك تعاكسها لأول مرة، وأنها لا تعرفك.

وعندما ظللت واقفا أغلقت زجاج النافذة في وجهك، وصنعت من بخار أنفاسها دائرة مضببة حجبت وجهها تمامًا!

مثل بنت لا تذكر اسمها

تقف على محطة الأتوبيس، ملابسك غير مرتبة، وحذاؤك مترب، وليس في جيبك سوى آخر جنيه ستركب به، وآخر سيجارة، وقد تشاجرت منذ نصف ساعة مع خطيبتك فألقيت لها الدبلة، ثم ندمت؛ لأنك لو تمهلت قليلا لخلعت هي دبلتها – التي هي كل ما اشتريته لها ـ فتبيع أنت الدبلتين وتستفيد بثمنهما!

تشعر برجليك لا تحتملان ثقل جسدك المهدود، تجلس على حافة الرصيف غير مبال باتساخ بنطلونك، وتفكر هل تشعل السيجارة الأخيرة أم تتركها لليلة طويلة آتية.

تضع ذراعيك فوق ركبتيك، وتريح رأسك عليهما، تنعس لدقائق، أول ما تستيقظ تستغرب لأنك حلمت حلما لا تتذكره، وتشعر بثقل في رأسك ولا تستطيع أن تفكر.

تخرج السيجارة، وتضع العلبة الفارغة في جيبك مرة أخرى، تشعر بالانتقام من خطيبتك التي كانت تتشاجر معك لكي تقلع عن التدخين.

تتذكر أن ثقابك نفد، تمر بالواقفين على المحطة، تسألهم واحدا واحدا عن كبريت فلا تجد.

تضع السيجارة خلف أذنك بطريقة الصنايعية، وتفكر في إقامة علاقة جديدة مع أي فتاة، وتمر بذهنك صور جميع الفتيات اللاتي عبرن بحياتك، تشعر بعدم

الجدوى، وتتمنى لو تسافر إلى أي مكان آخر، لكنك تعود لتجلس في نفس المكان.

تتأمل أجساد النساء والفتيات السائرات أمامك بلا أي شعور، دون أن يؤرقك إحساس بالخيانة تجاه واحدة ما، فتشعر بمزية جديدة لفك الارتباط!

تلمح رجلا مسنًا يتعثر في حجر صغير ويسقط على وجهه، كل الواقفين على المحطة يتظاهرون بأنهم لم يلمحوه، ولا تجد في نفسك حماسا كبيرا لأن تقوم، فتخرج علبة السجائر الفارغة، تفردها وتقطعها على شكل ذيل دبور ورقي، تفرح به، وتتذكر الأستاذ (مجدي نينجا) الذي وضعت له ذيلا في بنطلونه، وأطلقت عليه هذا الاسم؛ لأن فمه كان كبيرا وبارزا يشبه أفواه سلاحف النينجا!

مزقت الذيل إلى قطع صغيرة، وضعتها على كف يدك المفرود، نفختها بقوة فطارت في كل اتجاه، وما لبثت أن ارتدت وتجمعت حولك في دائرة أنت مركزها!

أتت حافلتك مزدحمة جدا، هرول معظم الواقفين إليها، وفكرت في البنت التي تكرهها خطيبتك، ستكلم هذه البنت أول ما تراها، كنت آخر من ركب فلم تجد لك سوى موضع قدم واحدة، ولم تنجح في تذكر اسم البنت، قدمك الأخرى معلقة في الهواء، والذي بجوارك يحيط خصرك بذراعه حتى لا تسقط!

ستوديـو ريهام للتصويـر

سلم معدني دائري، تصعده حتى تواجهك فتاة الاستوديو، جالسة على مكتب عتيق، وقد علّقت على شفتيها ابتسامة محايدة أول ما لمحتك، ابتسمت لها ابتسامة حقيقية وأنت تقول:

- في تصوير مستندات؟

هزت رأسها بالإيجاب.. لم يعجبك شكلها، ولا ملابسها التي فاتتها الموضة.

تناولت منك الأوراق، وضغطت على زر بماكينة التصوير وقالت:

- دقيقتين... المكنة تسخن.

عادت خلف مكتبها، وظلت دون شيء تفعله، وقفت أنت أيضا متحيرا، فتظاهرت بأنك تتفرج على الصور القليلة المعلقة داخل برواز زجاجي كبير:

صورة لفتاتين بزي مدرسة الثانوي الصناعي متخاصرتين، إحداهما تبتسم في بلاهة، والأخرى يبدو أن الصورة التقطت على غفلة منها، كان فمها مفتوحًا، وعيناها نصف مغمضتين..

صورة قديمة لعروسين، سيطر عليك شعور بأنهما لابد قد انفصلا!

- كام نسخة؟

أفزعك صوت البنت فانتفضت، وضحكت هي عليك وقالت:

- لو صاحب الاستوديو شافك مبحلق في الصورة دي كده هيتخانق معاك أصلها صورة فرحه هو ومدام ريهام.

لم تسألها عن مسألة الانفصال، وشعرت بالجو بينكما أكثر ألفة، فسألتها عن دراستها، قالت:

- أنا خرجت من تانية ثانوي لما أمي ماتت.. عشان أعمل الساندويتشات لإخواتي قبل ما يروحوا المدرسة!

- هم أصغر منك بكتير؟

- واحد أكبر مني، والتاني أصغر مني بسنة وشهرين.

فبدا سببا ساذجًا، وأخبرتك أن اسمها سميرة، وأنها من برج الحمل وتضايقت عندما علمت أنك من برج العذراء.

عندما وجدت أنك لم تتكلم بعد موضوع الأبراج هذا ظنت أنك تضايقت، فقالت:

- أنا مبعتقدش قوي في موضوع الأبراج ده.. يعني.. تسالي وخلاص.

بين الحين والآخر ترفع يدها وتدخل خصلة شعر وهمية تظن أنها تسللت إلى الخارج من تحت الإيشارب، فتظل تحشرها تحته بطريقة عصبية.

قالت لك إن أخويها واحد طبيب، والآخر في كلية الهندسة، خمنت أنها تكذب حتى تبرر خروجها من المدرسة، عندما وجدت أن موضوع الساندويتشات هذا غير مقنع. بعد أن أنهت تصوير الأوراق قالت:

- تدبسهم؟

هززت رأسك لها، ففرقت الأوراق كل مجموعة على حدة، وأعملت فيها الدباسة، وهي تسألك عن دراستك، وقالت إنها لو أكملت لكانت زميلتك في الكلية، فهي تحب التجارة وإدارة الأعمال.

رأيت جسمها متناسقا، وحتى تمنح لنفسك فرصة إقامة علاقة معها قلت لها:

- طب ليه ما تكمليش دراستك مادام إخوتك كبروا ؟!.. هتبقى فرصة حلوة ليكي، وأنا مستعد أساعدك في المذاكرة.

لوحت بيدها وهزت رأسها مبتسمة في استبعاد. ناولتك الأوراق بعد أن وضعتها في كيس بلاستيك.

أعطيتها النقود، وكتبت لها رقم هاتفك، وقلت لها:

- لو فكرتي في موضوع المذاكرة.. ابقي كلميني!

هزت رأسها بطريقة فهمت منها أنها لن تتصل، ولمحت وأنت تستدير لتخرج صورة صاحب الاستوديو وزوجته، تبدو دميمة، وفستانها مكشوف يُظهر جزءا كبيرا من صدرها، كان عمر الصورة حوالي سبع أو ثماني سنوات. ثم عدت وخمنت أنه لم يطلقها عندما قرأت على الحائط عند أول السلم المعدني وأنت نازل اللافتة التي لم تنتبه لها قبل دخولك:

«مرحبا بكم في ستوديو ريهام للتصوير»!

كيس مناديل

مهرولا تسير حتى تلحق بموعد خطيبتك التي تنتظرك في ميدان رمسيس.

بنت صغيرة بشعر أصفر، وبدلة أولادي جرت إليك وهي تصيح:

- بابا.. بابا !

تحيرت ولم تدر ماذا تفعل والبنت متعلقة في ساقك، وأمها على بعد خطوات منكما تقف في حرج، فزعقت في البنت:

- يا مريم.. تعالي يا مريم.. سيبي رجل عمو.

لم تعجبك ملامح الأم ببشرتها القمحية وحاجبيها الكثيفين، لكنك أحببت العباءة السوداء المحبوكة على جسدها.

رفعت البنت على ذراعك، وقلت لها مازحًا:

- إنتي تعرفينـي؟

- إنت بابا.. مبتجيش عندنا ليه؟!

اقتربت المرأة خطوتين دون أن تتكلم، وفي عينيها رجاء للبنت بالصمت، طرف أنفها الدقيق كان أحمر ولامعا بطريقة أعجبتك.

أنفاس البنت الساخنة قريبة من خدك، والمخاط يتدلى من أنفها، أخرجت كيس المناديل من جيبك بيد

واحدة، وحاولت أن تخرج منه منديلا، فوجدت صعوبة، تناولت منك المرأة الكيس دون أن تلمس يدك، أخرجت منه منديلا ومسحت أنف البنت بقوة، تألمت الصغيرة وصرخت، وضربت يد أمها حتى سقط الكيس على الأرض.

ارتمت البنت على كتفك وهي ترفس برجليها في الهواء.

انحنت المرأة فأعجبك جسدها، ناولتك كيس المناديل معتذرة.

والبنت استكانت في حضنك تماما، وهي تقول بصوت هادئ:

- بابا حلو.. ماما وحشة!

أدركت أنك تأخرت على خطيبتك كثيرا، وخمنت أنه قد يكون هناك من يعاكسها في هذه اللحظة بالذات، ولم تدر كيف تتخلص من البنت المتعلقة برقبتك، وقد تكرمش القميص الذي ترتديه تماما.

قالت الأم:

- يلا يا مريم.. انزلي ومتضايقيش عمو.

ردت البنت:

- ماما تسكت خالص.. بابا هيجي معانا.. صح يا بابا.. إنت ليه مش بتيجي عندنا؟

مدت المرأة ذراعيها وانتزعت البنت من صدرك بقوة، صرخت البنت وتشبثت بثيابك، في وسط بكائها كانت عيناها تتوسلان لك ألا تتركها.

انصرفت المرأة محرجة ومهرولة.

وقفت أنت متحيرا للحظة، ثم سوّيت ملابسك وسرت.. بعد خطوات توقفت؛ حيث أدركت أنك تسير في طريق معاكس للاتجاه الذي كنت تريد أن تسير فيه!

بيت من غرفة واحدة

دقت البنت على روحي: تك تك تك.

وعندما فتحتُ لها دخلت بعباءة سوداء سابغة، وكان لديّ بالبيت كلب يمنع دخول الملائكة.

دخلت هي، وكانت لا ترتدي شيئا تحت عباءتها الواسعة.

أعطتني نقودا، وقالت:

- اشتر لنا طعاما فاخرا، ونبيذا، وتبغا مستوردا.

ودخلتُ إلى الحمام حتى تبرد حر جسدها بالماء، وأنا وقفت أتطلع إليها من ثقب الباب، قالت:

- أرى ظلك من تحت الباب.

نزلت مسرعا وقلت: ينبغي أن أستغل الوقت.

ساومت المرأة في ثمن الطعام، وساومت الرجل في ثمن النبيذ، في حين كان سعر التبغ محددا سلفا، وقلت: أستبقي لنفسي قرشين.

البنت التي تتفوق عليّ بوظيفة ودخل محترم، لم تخف عليّ في أول تعارفنا أنها تحب النوم معي على سرير واحد. أبدت إعجابا بكلبي الصغير، وقالت إن ملامحه تشبه ابن أختها تماما، وأجلسته في حجرها وهي عارية.

شعرتُ معها بألفة فتصرفت بطريقتي العادية: أروح وأجيء بجلباب على اللحم، أقرأ وأكتب وأدخن مخدرا تحب هي رائحته فقط، وأعمل لنفسي كوب شاي واحدا وهي جالسة على الأرض يداعبها الكلب، متمددة على بطنها تتفرج على موديلات الأزياء في مجلة نسائية، وتدندن لحن أغنية قديمة.

البنت التي تعمل سكرتيرة في شركة أجنبية، وتأخذ يومين إجازة كل أسبوع، تبيتهما معي، عرت نفسها أمامي وجلست تزيل الشعر الزائد من جسمها، وتقول وهي تتألم في لذة إنها بعد أن تتزوج لن تخون زوجها معي.

ثم اقترحت علىّ ـ كأنما واتتها الفكرة - أن أتزوجها، وعندما رفضت، قالت:

- أحسـن.

هذه البنت كانت تكره صورة أمي التي أعلقها على الجدار، وتديرها أول ما تدخل لتجعل وجه أمي ملتصقا بالحائط في العتمة الشديدة.

وأنا قلت: أنا أكره البنت التي تشرب السجائر ولا تأخذها على صدرها، ولكن ذلك أفضل لأمي أيضا حتى لا ترانا نائمين على سرير واحد!

قالت البنت إن أباها يعمل بوابا لعمارة كبيرة، وإنه علّم إخوتها أحسن تعليم، وأنا لم أسكن أبدا في عمارة

بها بواب، ولا أحب البوابين؛ لأنهم يعترضون طريقي دائما عندما أدخل عماراتهم، ويقولون لي: يا كابتن.

قلت لها وأنا انتقم: إن البوابين قوادون.

وحكت هي عن رؤيتها لأبيها مع أمها في حجرتهم الضيقة، وأنهما كانا لا يتوقفان عندما يعلمان أنها تنظر إليهما، فقط يزعق أبوها ويقول:

- غطي وجهك يا بنت!

تروح البنت عملها وتجيء، تشتري شقة كبيرة لأبيها وأمها فيتركان العمل، وتصبح لهما غرفة خاصة تغلق من الداخل بمفتاح، وأنا جالس في غرفتي الضيقة أنتظرها يومين كل أسبوع، وفي كل مرة أقول:

- سأقطع علاقتي بهذه البنت في المرة القادمة!

الحرب الأخيرة

انتبه فجأة، وجد في يده سلاحا، وعلى رأسه خوذة كتلك التي يرتديها الجنود.

طنين الطلقات يتطاير حوله وفوق رأسه كسرب خفافيش مذعورة.

حاول أن يتذكر اسمه.. وطنه.. تاريخه.. أي شيء، ولكن دون جدوى.

الجميع ذاهلون عنه في اشتباكاتهم. يفشل في أن يتبين إلى أي جانب ينتمي.

ينظر إلى ملابسه وملابسهم، كل الملابس واحدة.

يحاول أن يضم نفسه إلى أي جانب عن طريق الملامح، يتذكر أنه لا يعرف شكله، كما أن كل الوجوه واحدة. كأنهم شخص واحد موزع في آلاف الأشخاص، كل شيء مشترك حتى الرمال، الشمس، النيران، الجوع، الظمأ، الألم!

يفتش في جيوبه عن هوية.. عن مرآة، ليس سوى هذا الشيء المفزع في يده، هل يجيد استعماله؟

تلقائيًا وجد نفسه يضرب.. يضرب.. يضرب.. يضرب...

فجأة هاجمه السكون، تلفت حوله لم يبق سواه.

سعى مهرولا يجمع في الجثث والأشلاء المتناثرة هنا وهناك، حتى صنع جبلا عظيما، احتضنه، وظل ينتحب!

مشرحة ينقصها قتلى

-1-

جذب العامل العملاق باب الثلاجة.

جارنا الواقف إلى جواري أقسم لهم فيما بعد أن أكثر من نصف شعري ابيضَّ مرة واحدة.

كأنما يخلع جوربه، مد العامل الدميم يده.. رفع الملاءة.

جمجمة متفتتة، مهروسة، دماء، دماء.. الأحمر ينتصب، يجثم عليّ، يحتلني، أترنح، سقف المشرحة بعيد.. أسقط، أرض المشرحة صلبة، باردة.. أرتطم.

-2-

أحاذر من المرور أمام المشرحة ليلا، أشباح بشعة تزحف من الداخل.. تتسلل إلى داخلي.. تتجول مكان دمي الهارب.. تخرج من مسام جلدي، تنتصب لها كل شعرة في رأسي.

شارع مظلم ضيق يفصل بين المشرحة والمستشفى الملاصقة له، أسير ملتصقًا بسور المستشفى الواطئ، من الداخل تتداخل أصوات: أنين، صراخ، نباح، عويل.. تصطك عظامي.

من الجانب الآخر صوت ثلاجات المشرحة يمسك بألف سوط.. يجلدني على قلبي العاري.

-3-

صفارات إنذار تدوي في رأسي، زجاج أزرق ينسدل أمام عيني، انفجارات عنيفة ترجني.. أتزلزل.

صور أبيض وأسود تتابع كذباب أمام عيني المغمضة، عبارات معدنية مشطورة تتبادل الطرق على رأسي:

«الغارة.....»، «المخبأ.....»، «النيران..... »، «أخوك الصغير.....»

«الضرب..... »، «المشرحة.....».

أهم بالجري.. بالفرار، نباح قطعان كلاب سوداء لا أراها يسكب غراء تحت قدمي.

أشعر أنني عار تمامًا، مبتور الرجولة.. أبكي، أعرق، أبتل.. أذناي مسدودتان، عيناي عمياوان، أتلاشى.. أتلاشى.

-4-

ألف متر طول هذا الطريق، أكثر من ثلاثة آلاف خطوة متعثرة لاهثة.

قدم الظلام السوداء الغليظة تدوس على قلبي، ينبعج، تحتك أطرافه بأظفار الرهبة، تدميه.. تنهشه. المرة الوحيدة التي حاولت فيها أن ألملم حبات الضوء التي نثرتها إحدى السيارات على الأرض، فقأت عيني أكوام الشاش والحقن والأكياس المملوءة بالدم. بصق الأحمر في عيني، دارت رأسي.

«أرض المشرحة صلبة.. سقف المشرحة بعيد».

الزلازل تضربني.. كل البنايات داخلي تنهار.

البراكين تنفجر بداخلي.. كل الأحياء بالداخل يختنقون.. يحترقون.

-5-

في المرة الثلاثين التي أعلنني فيها طبيبي النفسي أن المقصلة قد فصلت رأس السنة بدا منهارًا.

صرخ في وجهي بصوت واهن:

«لا فائدة.. لن تشفى.. اخرج من هنا».

وجلس يبكى.

-6-

لم أمر في هذا الطريق نهارًا. هل سيبدو أقل دمامة؟!

دائمًا أرتدي حذاءً رياضيًا، حتى لا تصرخ خطواتي بصوت مسموع.

أظل أدعو الله أن يظهر أي واحد في هذا الطريق، أي لص! أي قاطع طريق!! أي قاتل!!!

-7-

فرحت جدًا وأنا أقبِّل ورقة النتيجة هذا الصباح، شهر كامل لم يلامس فيه حذائي تراب الطريق!

من مكاني، على ضوء عقارب ساعة يدي الفسفورية ألمح حارس حظيرة الظلام يقطع ألسنة العصافير.. يحكم إغلاق فوهة جرابه الأسود على الكون، بينما أُعد الخطوة الثالثة من ثلاثة آلاف خطوة سيقطعها فيَّ الطريق!

الألوان المبهجة لسرادق الموت

مات جدي.. و «كلنا هنموت»، هكذا قال أبي.

وقفت بجوار أبي في أول السرادق، أشد له طرف البدلة السوداء المكرمش حتى أفرده، أغاظني أن أحدًا لا يسلم عليَّ كما يفعلون مع الطابور الطويل، تركت المعزى وخرجت أبحث عن أي عيل ألعب معه، فلم أجد.

لن أراه مرة أخرى، بذقنه البيضاء التي تؤلم خدي حين يقبلني، بجلبابه الأبيض المتسخ المليء بالثقوب، يجلسني على رجله الناشفة، ويقول إنها من البخور لن أشم رائحة جلده وجوربه، وهو يضمني ويحكي لي حكاياته القديمة.

لم أكن أحب الحلوى التي يأتي بها من المولد، ولا الفانوس الصفيح أبو شمعة، ولا الحصان الحلاوة.

كل خميس يأتي ليبيت لدينا، يشعل فحمًا كثيرا وينثر عليه البخور فتمتلئ الشقة بالدخان الكثيف، أنا لا أحب البخور، وأختنق من رائحة الدخان.

يأخذ سريري ويأخذني في حضنه، ويروح في النوم وذراعه على صدري، لا أستطيع أن أنام، وتتجسد لي وحوش حكاياته في ضوء الغرفة الخافت، ألمح لعابا يسيل من فمه كخيط طويل لا ينقطع، وهو يطلق شخيرا مرتفعا له خشخشة في صدره.

لم أجد أحدا ألعب معه، فظللت أدور بين المعزين، وكلما وجدت رجلا أصلع، أضربه على ركبته، وأعده بصوت عال: واحد، اثنين، ثلاثة.

كانوا ثمانية، وتحيرت في واحد، وقفت أمامه طويلا أنظر إلى رأسه، هل أحسبه أصلع أم لا، أخرج من جيبه قطعة حلوى أعطاها لي، ربت على كتفي؛ وقال:

يا حبيبي.

لكنني كنت قد حسمت الأمر، فضربته على ركبته، وقلت: تسعة.

مات بالأمس، بعدما صلى الجمعة في الجامع الذي لا أحبه؛ لأن الرجل الكبير هناك يكنس المسجد، ويضرب الصغار، ويشدني بقوة ليوقفني في الصف الأخير.

أنا لا أحب الصف الأخير، ولا صلاة التراويح في رمضان لأنها توجع رجلي، فأترك الصلاة، وأظل أدفع العيال حتى يخرجوا من الصلاة فنلعب، يراني، ويقول دون أن يترك يدي إنه لن يأخذني معه مرة أخرى.. لكنه لا يلبث أن يأخذني في كل صلاة.

قبل النوم يقول لي أبي:

- هات الميه لجدك.

فأملأ الكوز الأزرق حتى منتصفه بالماء، وأضعه أمام جدي، فيخلع أسنانه كلها بيده، ويضعها في الكوز ويداريها عني، لكني ألعب فيها بعد أن ينام، أحاول أن

أضعها في فمي، لكنني لا أستطيع أن أشم رائحتها الكريهة، ولا أستطيع خلع أسناني كما يفعل.

بعد أن يخلع أسنانه يتكرمش وجهه، ويدخل في بعضه، وتصير ذقنه مدببة، أمد يدي لأفرد له التجاعيد الكثيرة في وجهه، فينهرني أبي ويأخذني هو في حضنه.

بعد صلاة الجمعة استند على كتفي، وقال لي إنه تعبان، قلت في نفسي لن أحتمله وسنسقط معًا على الأرض.

بدأ المقرئ يرتل السور القصيرة التي حفظها لي جدي، جريت بسرعة، وطلعت على كنبة المقرئ العالية، وبدأت أقرأ معه بصوت مرتفع، ولم تستطع عين أبي أن تخرسني، حتى أتى ياسر ابن عمي الكبير، وأنزلني، خرج بي إلى الشارع واشترى لي زجاجة بيبسى وتركني وعاد إلى السرادق.

بعد انتهاء السرادق ذي الألوان المبهجة المتداخلة بكى أبي كثيرا فمللت منه، خرجت فوجدت العيال، جمعتهم في دائرة، قربت رءوسهم من بعضها، قلت لهم بصوت خافت إنه مات. لم يفرحوا كما توقعت، هم يعرفون جدي، يأتي ليأخذني حين تكون اللعبة في ذروتها ويرسلني لأشتري له الزبادي الذي لم يكن يأكل غيره، تعجبت عندما لمحت شيئا كالحزن في وجوههم برغم أنه الآن مات، ولن يفسد أحد اللعبة.

سلم كهربائي ينزل تحت السطر

وحيدا أسير في شارع مظلم، يأتيني الضوء عن يساري، فيمتد ظلي عن يميني، طويلا كما تمنيت أن أكون، أنا الذي عايره زملاء المدرسة بالقصر والنحافة.

يراودني إحساس بأني مراقب، أتلفت حولي وأستدير، فيعجبني شكل ظلي، أراوده عن نفسه، أقول: تدخلني وأدخلك، فأرى نفسي في مرآة قديمة، ضئيلا كما أنا، بأجندة الجامعة، مندسة بين أوراقها تذكرة مترو الأنفاق، بحثت عنها طويلا، ولم أجدها إلا بعد أن رجعت إلى البيت، ودفعت الغرامة للقميص اللبني، والحذاء المقطوع.

أشعر أن هناك من يتفرج عليّ، أرغب في تحسين أدائي، لكن أجدني أتحرك رغما عني: أسير يمينا ويسارا، وأرفع يديّ إلى وجهي، ثم إلى شعري، دون إرادة مني، حتى انتبهت إلى أنني أتابع حركات ظلي تماما.

رغم أنني في مرآتي القديمة لامست أنامل البنت فابتسمت، البنت التي تخاف من السلم الكهربائي في مترو الأنفاق، لكنها تخجل أن تقول، تتردد للحظة ثم تقدم قدمها اليسرى، وتغمض عينها، وتقبض على ذراعي بقوة، وعندما تشعر بانسياب الحركة، تفتح عينها وتترك ذراعي، لتتحرك في شقاوة صاعدة عكس حركة السلم الكهربائي.

أغيب للحظة وعندما أعود لا أجد ظلي، بينما الضوء ماثل كما هو يجرح عيني، وأبقى عاجزا عن الحركة، فقط أبحث بعيني عن ظلي، على الأرض، على الجدران، في مداخل البيوت، وتلوح مني التفاتة إلى أعلى، فألمحه في السماء يلهو بين سحابة وأخرى، وأنا مقيد بحذائي الملتصق بطين الأرض.

لكن البنت ضمت ابتسامتها، مكثت قليلا وولّت.

حاولت النظر إلى جسدي، فلم أجد سوى الهواء، ارتميت وسط الشارع متمرغا في الأرض، قلت أمدد جسدي قليلا على المقعد الوحيد في الميدان، غفوت قليلا حتى أتى عاشقان جلسا فوقي، وتكلما براحتهما، كأنني غير موجود.

ابتهلت كثيرا، حتى نزل ظلي من السماء إلى مكانه بجواري، وفجأة امتلأ الشارع بالضجيج والمارة، واختفى الضوء، لكن ظلي بقي كما هو، وداس الناس عليه بأحذيتهم، ودهسته عجلات السيارات، دون أن يتوقف أحدهم لصراخي!

بعد 7 مساء

سيقايضه.. سيجارة بوردتين.

دخلتَ إلى المحطة فرأيتَه.. رجلا عجوزا بجلباب رث، يمسك في يديه وردتين حمراوين يجلس القرفصاء مستندا إلى عمود المحطة.

أنت لا تفهم في أنواع الورد، أكثر من مرة تحاول أن تحفظ أسماء وأشكال الزهور، لكن تفشل.

سيعدل الطاقية بيد، ويقرب الوردتين باليد الأخرى من أنفه، ويشمهما، وعندما يلاحظ أنك تنظر إليه، سيشير إليك إشارة خفيفة برأسه.

هذه هي المرة الأخيرة التي ستقف فيها على هذه المحطة، المرة الأخيرة التي ستنتظر فيها أتوبيس السابعة والربع مساء، لن تأتي إلى هذه المنطقة كلها مرة أخرى!

طوال مدة عملك هنا كانت مشاعرك محايدة تماما للأماكن والمعالم البسيطة للمنطقة: محل عصير قصب، بائع جرائد، سوبر ماركت، محل تصليح أحذية، وعربة كشري تشعر أن بائعها العجوز يشبه جدك.

اقتربت منك امرأة شابة تحمل طفلا لم يتجاوز السنة، سألتك عن الأتوبيس الذاهب إلى التحرير، لم تكن جميلة، وخمنت أنها لا تقرأ ولا تكتب.

سيراقب العجوز وقفة المرأة إلى جوارك، وأنت تحاول أن تداعب الطفل لكنه لا يبتسم، فتشعر بثقل دمك.

سيرفع الطاقية من على رأسه، فتبين صلعته الواسعة، ويتغير شكله إلى

حد ما، يضع الوردتين في حجره، ويمسح رأسه بكلتا يديه مرات عديدة، وهو يختلس النظر إلى الواقفين حوله.

ستحزن فيما بعد لأنك تركت العمل، لكنك الآن لم تستوعب الأمر بدرجة كافية، أعطاك صاحب العمل باقي حسابك، وابتسامة ملفقة، ودعا لك بالتوفيق في مكان آخر، أقنعت نفسك بأنه رجل طيب، ولم يصافحك أيٌّ من زملائك، لكنك شعرت بأعينهم تتحسس ظهرك وأنت منصرف، بينما العجوز يشم الوردتين دون اهتمام.

ستأخذ منه الوردتين (في خيالك) فتعطي واحدة للطفل الصغير على ذراع المرأة الواقفة بجوارك، لعله يبتسم، وتعطي الأخرى لفتاة المكتبة التي بأسفل العمل بملامحها الطيبة، تبتسم لك وأنت داخل أو خارج، اليوم ابتسمت لك ابتسامتها الأخيرة، فلم تستطع أن تبادلها إياها، أعطيتها كتفك ووليت!

تنفض من رأسك كل ملامح هذه المنطقة، لن تعود إليها مرة أخرى، كما أنك لن تبدأ في البحث عن عمل إلا بعد أن يزول التأثير السيئ لفكرة صرفك من العمل.

خمنت أن فتاة المكتبة لا تحب الورد، لميلها إلى الشكل الذكوري في الملابس والتعامل.

سيأتي رجل حرفي بملابس متسخة، ويقول:

- سلام عليكم.

ويقف بينك وبين الرجل العجوز، دون أن يرد عليه أحد السلام، سيخرج كعكة كبيرة من الكيس البلاستيكي بيده، ويقول:

- اتفضلوا.

ويأكلها دون شهية على فترات متباعدة، ثم يلقي بنصفها في الكيس، وقد بدا مكان أسنانه واضحا فيها، سيراقبه العجوز بطرف عينه، في حين تجلس المرأة لترضع طفلها.

سيخرج الحرفي علبة سجائر محلية، كتلك التي يشربها مديرك القديم، كان السبب في تركك العمل، وسيمد نحوك سيجارة بارزة من طرف العلبة، تشكره بهز رأسك فيوجه العلبة نحو العجوز الذي يسحب منها السيجارة ممتنا، ويضعها خلف أذنه.

لم تفكر كيف يمكنك أن تخبر أي إنسان بأنك فصلت من العمل، لكن حياديتك تجاه المكان تنكسر، ليحل محلها شعور ليس بالحب ولا بالكره إنما بعدم الألفة.

سيمد العجوز يده بالوردتين إلى الحرفي، فيقربهما من أنفه، ويقول:

- ريحتهم حلوة.

سيفرح العجوز ويهز رأسه بشدة مؤكدا.

تلمح الأتوبيس قادما، فتشير للمرأة عليه، وتجري عليه بحكم العادة، برغم قلة الواقفين.

سيجلس الحرفي والمرأة متجاورين في المقعد الذي يسبقك، وهو يأخذ أنفاسا عميقة من الوردتين، ويحاول أن يجد مكانا يعلق فيه الكيس في الكرسي، وعندما لا يجد، يفسح قليلا ويضعه بينه وبين المرأة.

والأتوبيس آخذ في الانصراف، سيلوح الحرفي للعجوز الذي لم يكن متنبها، ثم يعود ليشم الوردتين.

منتصف الليل

في هذا الوقت المتأخر، لم يجد الرجل في نافذة الطابق الرابع، سوى أن يراقب الثلاثة أو الأربعة الواقفين على المحطة.

الشاب الوحيد في محل العصير المواجه للمحطة على الرصيف الآخر، أخرج كرسيًا وجلس أمام باب المحل.

الأتوبيس قبل الأخير اختصر عدد الواقفين على المحطة إلى واحد.

الرجل في الطابق الرابع الذي أشعل سيجارة، حاول أن يخمن ماذا يمكن أن يعمل الرجل الواقف على المحطة، مرتديًا بدلة كاملة، كالحة اللون، ورباط عنق قصيرا!

الشاب أمام محل العصير تضايق جدًا من رباط العنق (المكرمش)، المربوط في اهتمام.

في الأتوبيس الأخير المزدحم، احتك بعض الواقفين - احتكاكا بذيئا - بالفتاتين الجميلتين اللتين تضايقتا قبل أن يدعوهما الرجل الكبير جوار النافذة، إلى الوقوف أمامه بين أول كرسي في الأتوبيس والماسورة التي وراء الباب.

اقترب الأتوبيس الأخير من المحطة، التي يقف عليها الرجل ببدلته الكاملة مواجهًا محل العصير الذي وقف

الشاب بداخله يعد النقود، بينما الرجل في الطابق الرابع يتململ.

لدى توقُّف الأتوبيس – الأخير المزدحم ـ أمام المحطة، اقترب الرجل صاحب البدلة من الرجل الكبير الذي إلى جوار النافذة، التي أسندت عليها إحدى الفتاتين ذراعها.. وسأله هامسًا:

- بكام الأجرة؟

- نعم؟

- التذكرة بكام؟

عندما لكزت إحدى الفتاتين الأخرى في جنبها، ألقى الرجل في الطابق الرابع السيجارة المنتهية قريبًا من الشاب الذي أنزل باب محل العصير، وأغلق النافذة بصوت سمعه سائق الأتوبيس، الذي وضع قدمه على دواسة البنزين، فقال الرجل الكبير بصوت عالٍ لفت أنظار الركاب جميعًا:

- بربع جنيه.. التذكرة بربع.. اركب.. بربع.. بسرعة...

الفتاة التي لكزتها الأخرى في جنبها تضحك بصوت عال.. في حين تخترق بدلة الرجل كل العيون الراكبة في الأتوبيس.. يطبق جيب البدلة بشدة على الخمسة والعشرين قرشًا النائمة بداخله.. يضغط السائق دواسة البنزين.. ينظر الرجل الكبير إلى البنت التي ضحكت.. يسير الشاب الذي أغلق محل العصير في عكس اتجاه الأتوبيس.

ينطلق الأتوبيس، لم يفكر السائق في النظر إلى المرآة، التي ظهرت فيها صورة مضببة لرجل وحيد، يرتدي بدلة كاملة قديمة، والرجل يتضاءل.. يتضاءل.. حتى يصير نقطة لا تبين وسط الإسفلت القاتم السواد!

وجها العملة

على ملابسه المهترئة القذرة.. على هيئته.. آثار صفعة الزمن.

نظرة في عينيه تشي بأنه يحمل داخله شيئا يختلف.

خطواته متقاربة.. منكسرة.. تبحث عيناه عن الأرض.. شبح قوة يتوارى خلف رفات النظرة الموءودة.

على كتفه كيس قماشي بادي الخواء.

يضغط على بطنه بقوة، وهو منحنٍ، تبحث عيناه عن بقايا طعام جوار الحائط.

يواصل سيره.. يرتفع الصوت متوجها إليه:

- يا مجذوب.. أنت يا مجذوب.

يرفع رأسه.. ينظر بعينين لم تعتادا مواجهة الأعين.. يبدو أنه يعرفه.

يطوح الآخر في الهواء بقطعة عملة معدنية.. ثم يلتقطها قبل أن تسقط، يكرر ذلك عدة مرات، وهو يخاطب من معه دون أن يهتم بأن يخفض من صوته:

- بهلوان هذا المجذوب.. يتشقلب ويتنطط.. بهلوان.

تطير عيناه مع العملة حتى أقصى ارتفاعها.. يتعلق بها من داخله لحظة الثبات.. يعود ليهوي معها داخل يد الآخر.. الذي أحكم قبضته عليها.

يشير إليه الآخر مديرًا سبابته في الهواء بحركة فهمها هو، وبصره مركز على اليد الممسكة بالعملة.

قدم إلى الأمام.. الأخرى إلى الخلف.. مسافة لا بأس بها بينهما.. وضع استعداد ما، ثم يميل بجذعه إلى الأمام.. إلى الخلف.. مرة.. ثانية.. ثم يطير في الهواء ساقاه لأعلى.. يدور دورة كاملة ليسقط على ظهره.. يسمع صوت ارتطام عظامه بالأرض الصلبة.

تتعالى ضحكات الآخر والذي معه.

ينحني ليلتقط العملة المعدنية التي قذفت له.

عند أول منعطف يختفي مسرعا بخطوات مضطربة.. ولا تزال يده تدلك ظهره عند موضع السقطة!

أسماك صغيرة ملوّنة

1-

لم يكن أبي صيادا، ولكنه كلما ذهب ليصطاد يأخذني معه، يترك السنارة في الماء، ويستدير بجسمه حتى ينظر في عينيّ، ويتكلم قليلا.

أفرح عندما تغمز السنارة، فيدير أبي البكرة، لترفرف السمكة في الهواء. يناولها لي أضعها في الحقيبة، وأضع له الطعم الجديد في السنارة.

ونحن عائدين أحمل أنا حقيبة السمك، ويحمل هو السنارة، يخلع قبعته ويضعها على رأسي حتى لا تضايقني الشمس الحامية.

2-

لم يكن النادل العجوز الذي يمد يده بالخمر في طيبة، وبلا أي ابتسامة على الإطلاق هو نفس الرجل الذي لمّع لي حذائي في المرة الأخيرة، فبقّع بورنيشه البني جوربي وطرف بنطالي. والاثنان لم يشبها في شيء الرجل الذي سبني سبابا قبيحا، وهو يسير متأبطا ذراع ابنته الجميلة؛ لأنني دون أن أقصد ألقيت عقب سيجارتي أمام طرف حذائه.

لكنني أنا، منذ ذهب الرجل الذي كانت هوايته صيد الأسماك (الصغيرة دائما)، كلما رأيت رجلا بشعر أبيض،

أتذكر قبعة قديمة، وشاطئ نهر، وأبا يستدير بجسمه،
فلا تستطيع العين أن تمسك به!

شاطئ وحيد للنهر

رجل عجوز يهرول مسرعا في اتجاه سير النهر، دون أن يلتفت إليه كثيرا.

يقولون: إن عمر هذا الرجل من عمر النهر، وإنه حتى الآن – برغم هرولته ـ لم يصل إلى نهايته.

في البداية كان في أثناء جريه يكلم النهر، فكان النهر يبتسم، ويلقي له بالسمك في الهواء، يتلقفه ساخنا، يأكله وهو يجري؛ حتى لا يقطع حواره مع النهر!

يقولون: إن الرجل لما هدَّه التعب استأذن النهر في أن يستريح قليلا، لكنه لم يجبه، أعرض عنه. في حين كان النهر يحتضن الصياد ذا القارب، والأسماك الكبيرة التي تأكل الأسماك الصغيرة، ويحنو على البنت الجميلة التي تستحم عارية على الشاطئ البعيد، مستترة بالماء، فلا يراها أحد.

قال الرجل للنهر: الآن أفارقك وتفارقني.

كان النهر رحيمًا، قال له: من أجلك سأركد للحظة، انزل فيَّ وخذ قوتي.

لكن الرجل الذي يخاف من الماء قال: يفتح الله يا نهر!

عندما توقف النهر في تلك اللحظة لم يكن بداخله سوى قارب لصياد، وبنت بديعة تستحم عارية، أصابتها قوة النهر، فلم تشبع بعد ذلك من رجل مطلقا!

جلس الرجل في ظل شجرة توت مورقة، أنزل من على كتفه عصاه الطويلة، فك من آخرها الصرة التي بداخلها زاده، وكتابه، وبعض الهدايا التي كان النهر قد ألقى إليه بها: سوار ذهبي، ومزمار قديم، وتمثال من المعدن، وبعض الأحجار الكريمة.

قال لنفسه: سأجلس لآكل وأشرب، أحتاج لأن أقرأ في كتابي وأحصي ما معي من أشياء.

ثم رفع يده مودعا النهر، قال: هذا فراق بيننا!

وواصل النهر جريانه.

قالت الأسماك الكبيرة:

- النهر مخلص لكنه لا ينتظر طويلا.. احمل عصاك وأسرع.

لكنه انشغل عنها بطعامه الذي جلس يعده.

بدأ يتناول طعامه في نهم، حتى وقفت في حلقه لقمة وكاد يختنق. بسرعة أخرج الكتاب، قرأ فيه:

- «اعلم أنه على من وقفت في حلقه لقمة أن يسارع بالشرب من النهر».

كان النهر منخفضًا وجاريًا والأسماك تلعب بداخله.

الرجل الذي يخاف الغرق سأل السمك أن يعطيه بعض الماء حتى لا يموت، فلم ترد عليه سمكة واحدة. وعدهن ببعض أحجاره الجميلة، بلا فائدة!

ألقى إليهن بكل ما معه من هدايا، فكانت الأسماك تتفاداها لتغوص في الماء!

حاول أن يحاور النهر كما كان يفعل:

أيها النهر السائر كان أبوك صديقي.. وكان من عاداته أن يمنحني الماء والطعام، وكنا نمزح معا، سبقته أحيانا وسبقني كثيرا، لكنني تعبت وجلست.

كان الماء يجري بسرعة كبيرة فلم يكن لديه استعداد لأن يتوقف لسماعه. فاضطر لأن يكرر حديثه لكل حفنة ماء جارية:

- جَدُّك كان صديقي... جَدُّ جَدِّك كان صديقي... جَدُّ جَدِّ جَدِّك كان صديقي!

نيجاتيف

رأيت فيما يرى النائم رجلا يشبهني، ونفقا، وامرأة تشبه امرأة أخرى لا أعرف أيا منهما، لكنها تعرفت إليّ وقالت إنها رأتني ذات مرة، ورأيت ورقة كبيرة معلقة كلافتة مكتوب عليها: ممنوع الخروج أو ممنوع الدخول لا أتذكر جيدا، ورأيت أبي يشبهني تماما يجلس على كنبة قديمة يطلب يد أمي، لكن جدي لم يوافق.

لم يكن حلما، أو ربما كان، لكن المؤكد أنني حين تيقظت كنت عاريا، ولم أعرف شيئا مما حولي، أجلسني شخص أمامه، ولم ينظر إليّ وظل يكتب طويلا في ورقة بيضاء بقلم أخضر ما يشبه أسئلة يفترض أن يوجهها لي، وإجابات يفترض أن أقولها، ظل منهمكا، يشعل سيجارة من أخرى، وفتاة مراهقة عادية الجمال بملابس أولادية أتت لي بملابس فارتديتها، وأتت له بكوب من الكركديه الساخن، شربه على دفعة واحدة وابتسم لها ولي وواصل الكتابة.

عشرة أيام كاملة، وليس بيننا سوى منضدة وأوراق وأقلام، يكتب من رأسه، ويشرب الكركديه، ويبتسم لي وللفتاة، يقوم أحيانا ليذهب للحمام في نفس الغرفة المتسعة، وأحيانا أقوم أنا، وتأتي الفتاة بطعام له يأكل معظمه ويترك لي ما تبقى منه، يمسح يده في ملابسه وأفعل مثله، ويكتب، وحين يتعب ينادي البنت فتطفئ النور، وينام فوق كرسيه، فأنام فوق كرسيّ.

في الليلة الأولى، نمت.

وفي الثانية قررت ألا أنام، لكن غلبني التعب فنمت.

في الليلة الثالثة أصررت على أن أبقى متيقظا، ونجحت، وحين نام، وأصدر شخيره الخفيف قمت من مكاني أتسلل، وحين اقتربت من باب الغرفة، نادني وطلب مني أن أضيء الغرفة و أعود، فأضأت النور وعدت، فظل يكتب طوال الليل، ويبتسم، دون أن يشرب أي أكواب كركديه، ودون أن يأكل أو يدخل الحمام، وفي النهاية ابتسم لي وقال إنه محبوس هنا، وبالتالي لا يمكنني الخروج.

أنا لا أعرف شكلي، هذا ما استنتجته في اليوم الرابع حين كانت الفتاة تحدق في وجهي خلسة، ثم تبتسم حين تدرك اني أراها.

الإنسان يرى الكون كله دون أن يرى نفسه، هكذا فكرت، وقلت لنفسي أنا أفكر إذن هو موجود، ونظرت له جيدا وهو منهمك في الكتابة وقست المسافة بيني وبينه فشعرت أننا متماثلان طولا وجسما، وظللت أقارن يدي بيده، وكتفي بكتفيه، وصدري بصدره، وكرشي الصغير بكرشه الصغير، وساقي بساقيه، والشعر الخفيف في ذراعي بالشعر الخفيف في ذراعيه، حتى شعرت أنه أنا، أمسكت أنفي فشعرت بأنه طويل كأنفه، ووضعت يدي على عيني، لكنه مازال يكتب، شعري قصير كشعره، وحين دخلت الفتاة وابتسمت، ووضعت كوب المشروب

أمامه، مددت يدي وشربته دفعة واحدة رغم سخونته فأحرق لساني وجوفي، فابتسم، وواصل الكتابة.

في الليلة السابعة نام، ولم أنم، تسللت حتى خرجت من الغرفة، كانت البنت تنام في غرفة صغيرة، فاقتربت منها، وحين شعرت باقترابي رفعت ملابسها دون أن تفتح عينيها، وجذبتني إليها، وانتهينا دون أن تنطق، ثم راحت في نوم عميق فنمت بجوارها.

رأيت فيما يرى النائم نفقا، وامرأة تشبه امرأة أخرى لا أعرف أيا منهما، وفتاة تشبه فتاة غرفة الكتابة المبتسمة، ورجلا يشبهني دون أن أتأكد من تطابق ملامحنا، هو الذي أيقظني وقال إنني نمت طويلا بما يعني أنني كنت متعبا، وصنعت الفتاة طبق حساء فشرب معظمه وترك لي القليل، ثم قادني من ذراعي إلى منضدة الكتابة وأجلسني فجلست فجلس.

كنت أرتدي ملابس رياضية بيضاء نظيفة وكان يرتدي مثلها، وسألته وهو يكتب: من أنت؟ فابتسم وواصل الكتابة، وسألته: من أنا؟ فواصل الكتابة كأنه لم يسمع شيئا.

قمت إلى الحمام بحثا عن مرآة لأرى نفسي، فلم أجد، ملأت طبقا كبيرا بالماء ونظرت فيه، فلم ينعكس وجهي، انحنيت على قاعدة الحمام وقربت وجهي من الماء فلم أر سوى القاع النظيف!

عدت ووقفت في منتصف الغرفة وخلعت ملابسي كلها، وألقيتها عليه قطعة قطعة، فنحاها بهدوء، وواصل الكتابة، فجلست أمامه عاريا، ودخلت الفتاة ولمحتني فغضت بصرها ووضعت كوب المشروب ولم تبتسم.

فكرت أنني لو خلعت ملابسه، وتحققت من شكل نصفينا السفليين، فربما أصل إلى نتيجة مؤكدة، لكنني ترددت، فنظر لي نظرة طويلة وابتسم، وكتب بسرعة، وقمت فلم يعترض، وتجولت عاريا، بحثت عن باب أو شباك فلم أجد مخرجا، وقرأت ورقة معلقة على الحائط مكتوب عليها: ممنوع الخروج.

وفكرت أنه لا يوجد حتى منفذ لدخول الأكسجين، وأننا سنموت قريبا، ثم فكرت أنه لا يوجد بيت بلا باب أو شباك سوى القبر، وفكرت أنني ربما أكون ميتا وهو ميت والفتاة ميتة، وأن الأوراق ليست أوراقا ولا القلم، وأن الكركديه والطعام ليسا هكذا.

أنا أفكر إذن هو حي، خبطت رأسي في الجدار فآلمني، وفكرت أنني لو كنت ميتا لما تألمت، ولما ابتسم.

أوقفته فوقف، خلعت عنه ملابسه فساعدني، حتى وقفنا عاريين، ودخلت الفتاة فجمعت الملابس من حولنا وانصرفت بها!

كل شيء فيه يشبهني، لكن عانته أطول من عانتي، اقتربت منه حتى وازى كل عضو فيّ عضوا فيه، يدي

يده، أنفي أنفه، حلمتي اليسرى حلمته اليسرى، ركبتي ركبته، حاجبي الكثيف حاجبه الكثيف.

صفعته على وجهه بقوة، وتوقعت أن يصفعني فلم يفعل، كورت قبضتي ودفعتها بقسوة أسفل بطنه فتأوه متألما، ثم اعتدل، رفعت ركبتي وضربته بها بين ساقيه فارتمى على الأرض فاقد الوعي!

مزقت الأوراق التي كتبها، وصنعت منها طائرات وصواريخ ومراكب حربية ظللت أقذفها عليه دون أن أقرأ ما فيها، وأخذت مكانه وقلمه وأوراقه، وارتديت ملابسي وجلست أنتظر أن يعود لوعيه.

أتت الفتاة فنظفت الأوراق من حوله، فاستيقظ ونظر للمكان ولجسده في دهشة.

ساعدته على الوقوف، ثم أجلسته مكاني، أتت الفتاة بكوب من الكركديه لي، وملابس له، فارتداها، وجلست أكتب كل ما مر بي من البداية حتى لا أنساه، منذ حلمت بالنفق والمرأة التي تشبه امرأة أخرى لا أعرف أيا منهما، ومنذ وقعت عينيّ على فتاة غرفة الكتابة المبتسمة، وعليه، كنت أعرف ما يفكر فيه فكتبته، وأبتسم لأنه لا يدرك مدى تطابق ما في خياله عني مع ما في خيالي عنه.

تأتي الفتاة بالطعام، فأفكر، وأقتسمه معه بالتساوي، فيأكل بنهم، ويبتسم، فأبتسم، وأكتب، وألمح عينيه تتابعان خطي الذي يشبه خطه، يقرأ ما أكتبه بفضول

وينظر لي بدهشة، يأخذ ورقة وقلما ويرسم ملامحي، وآخذ ورقة وقلما وأرسم ملامحه، ينتهي كل منا ويضع الورقة على وجهها، ونغمض أعيننا، ونستدعي الفتاة فتخلط الورقتين جيدا، ونسحبهما، يحاول كل منا أن يحدد ورقته فلا يتمكن، تبتسم الفتاة وتنصرف.

يأخذ كل منا ورقة وقلما، ويبتسم، ويبدأ في كتابة حكاية مختلفة!

محطة أتوبيس

وقفت في انتظار الأتوبيس أدخن، في الحقيقة لم أقف في انتظار الأتوبيس، وأنا أصلا لا أدخن، لكنني تخيلت أن عبارة مثل «وقفت في انتظار الأتوبيس أدخن»، هي مدخل جيد لقصة قصيرة.

ستلاحظ قطعا أنني كررت في الفقرة السابقة عبارة «وقفت في انتظار الأتوبيس أدخن»، في الحقيقة أنا لم أكتبها مرتين كما قد تظن، لكنني وقفت على أول الجملة بـ «الماوس»، ثم ضغطت «كليك شمال» وسحبت «الماوس» فظللها، ثم أخذتها «كوبي» و«بيست».

الكتابة على الكومبيوتر أسهل، لكنها تحتاج إلى تعوّد في البداية.

تأخر الأتوبيس الذي كنت سأكتب عنه في القصة، فشغلت نفسي عنه بمراقبة المارة الذين في القصة.

الكتابة تعطي تنوعا أكبر في نوعية المارة، حيث يمكنني أثناء تدخين السيجارة أن أجعل شخصياتي كالتالي: رجل عجوز يسير ببطء ثم يبصق على الأرض ويسألني:

- أتوبيس 6 مجاش يا ابني؟

سأسخر منه في سري داخل القصة وأقول: «أتوبيس 6 اللي بيروح كل حته؟»، لكنني سأرد عليه مانعا ابتسامتي وأنا أقول:

- لأ والله يا حاج مشفتوش، زمانه جاي.

يتركني ويجلس على المقعد بصعوبة ويخرج كيسا به خيار مغسول ويقضم واحدة.

في الحقيقة أشعر أن نكتة «أتوبيس 6 اللي بيروح كل حته» قديمة وساذجة، وأنه ربما يكون من الأفضل أن أمسحها، لكنني سأقرر أن أتركها لأن الرجل العجوز أصلا لم يأت لي، ولم يسألني عن أتوبيس 6، لأنني في الحقيقة لم أقف على المحطة ولم أنتظر الأتوبيس، كما أنني لا أدخن، وفي الغالب أصلا لا يمكن للمسنين أن يأكلوا الخيار لأنهم فقدوا أسنانهم منذ زمن.

كثيرون يسألونني:

- يعني إنت بتكتب ع الكومبيوتر على طول؟ ولا بتكتب الأول في ورق وبعدين بتبيض؟

هؤلاء تحديدا أحب أن أغيظهم:

- بكتب ع الكومبيوتر على طول، سهلة على فكرة، بس عشان إنت مش متعوّد.

يخبرونني بأهمية التدفق الشعوري عبر القلم وأن تفكيرهم مرتبط بحركة أياديهم وهم يكتبون، وبعضهم يتحدث عن الحميمية، وعن شرائه أقلاما معينة من نوعيات فاخرة، وأنه من رابع المستحيلات أن يكتبوا على الكومبيوتر مباشرة.

لا أعرف لماذا يحكي لي كاتب ورقيّ قلميّ كل هذه الأمور عن طريقة كتابته وهو متأثر كأنه في لحظة

نشوة؟ أقول له في سري: «ما تكتب بالقلم ولا ع الكومبيوتر ولا متكتبش أصلا أنا هعملك إيه!».

لكنني أقول ربما يقول هذا الكلام كنوع من تمضية الوقت ونحن في انتظار الأتوبيس الذي تأخر فعلا، أتجاهل كلامه وأتأمل الفتاة الجميلة التي أتت من نهاية الموقف طويلة وممشوقة (لا أعرف معنى ممشوقة على التحديد، لكنهم يكتبونها في القصص القصيرة) وترتدي جيب كاروهات أحمر وقميصا أبيض وشعرها على هيئة ضفيرتين طويلتين، تماما كمراهقات الأفلام الجنسية التي يتم تصويرها داخل فصول.

أتأمل الفتاة متظاهرا بالتدخين وسماع حديث جاري الكاتب وجاري المسن، وقد اندمجا في حديث معا، يشكو فيه العجوز للكاتب من تشويه الأدب للمسنين، ويطالبه بقليل من الإنصاف، وأن الأمر ليس بهذا السوء!

ينظر له الكاتب متشككا فيخرج المسن خيارة ضخمة ويقضمها بسهولة ليثبت له أن المسنين قادرون على قضم أنشف خيارة بمنتهى اليسر، يميل المسن على أذن الكاتب الورقي القلمي، ويهمس له بأنه بحبة فياجرا واحدة بجنيهات يمكنه أن يقوم بالواجب مع أي امرأة حتى لو كانت فتاة صغيرة!

تمر الفتاة في نفس اللحظة أمام الرجل العجوز، فيقول للكاتب:

- عندك دي مثلا، أنا كفاءة إني أخليها تقول حقي برقبتي.

يستدير العجوز بوجهه عن الفتاة التي وقفت بعيدا، فيلمح نظرة شك في عين الكاتب، فيرتبك، ويقول له:

- تحب أوريك؟

هنا يمكن للقصة أن تأخذ أكثر من منحى، أولا: السيجارة قاربت على الانتهاء، ووصلت عدد كلمات القصة إلى 511 كلمة، وهذا معدل معقول لطول قصة قصيرة متوسطة، فيمكن أن أغلقها بأي طريقة ملفقة كأن أخبرك أن الأتوبيس أتى، فأطفأت السيجارة وعدت إلى البيت.

لكنها نهاية غير مقنعة.

السيجارة مشتعلة لا تزال، والقصة ممتدة، والأتوبيس لم يأت، والكاتب متشكك، والفتاة تقف بعيدا تلعب في هاتفها المحمول، والعجوز في مأزق، لأنه أخبر الكاتب عن فحولته المستعادة بحفنة من الجنيهات، وقال له:

- تحب أوريك؟

فأومأ الكاتب برأسه موافقا، ودس يده في جيبه وأخرج حبة فياجرا زرقاء فاقعا لونها (تعبير قرآني، ربما يستهجن البعض وضعه في هذا السياق)، وأعطاها له، فأخذها العجوز وجرشها على أسنانه دون ماء، ثم ترك كيس خياره وتوجه إلى الفتاة رأسا.

لماذا كان الكاتب الذي يتوهم أنه يحب الأقلام خوفا من فشله إذا كتب على الكومبيوتر مباشرة، يحمل في جيبه حبة فياجرا؟ هذا السؤال متروك للقارئ الذكي، دون وعد بجائزة أو ما شابه!

لم يكن في الأتوبيس سوى السائق فقط، وقبل بدء الرحلة وقف في منتصف الكراسي وحمد الله وأثنى عليه، ثم اعتذر عن عدم وجود محصل معه، فتعجب الكاتب القلمي الورقي منه وسأله مستفسرا:

- ليه؟

«جلس السائق، وطلب سيجارتي ليشعل سيجارته فمنحتها له، فأطلق دخانا كثيفا، وحمد الله وأثنى عليه، ثم سب الدين لهيئة النقل العام وللحكومة وللركاب، وقال إن اليوم كان إجازة لديه لأن زوجته تلد في المستشفى، لكنهم اتصلوا به وأخبروه أن هناك حالة طوارئ ولابد أن ينزل للعمل حتى يظهر في القصة، فحاول الاتصال بزميله المحصل لكنه وجد هاتفه مغلقا».

أخذ السائق نفسا طويلا من السيجارة، ثم أخفض صوته حتى لا تسمعه الفتاة التي تركب في مؤخرة الأتوبيس، وقال بلهجة مكسرة:

- هو أساسا تلافونه مش مقفول، بس هو خلى مراته ترد عليّا وتقلد صوت الوليه بتاعة الموباين، اللي بتقول: الهاتف الذي تلبته كد يكون مغلكا أو خارك نطاك الختمة.

الكاتب الورقي القلمي أبدى اهتماما مبالغا فيه بحكاية السائق والمحصل، وشعر أنه ربما يخرج منهما بقصة يكتبها أولا على الورق، ثم يبيضها على الكومبيوتر كأي مُدخل بيانات في شركة، فسأله:

- طب وإنت عرفت إزاي إنها مراته، مش الرسالة المسجلة؟

الرجل المسن كان منصتا لحديثهما، وهو ينظر إلى سوستة بنطلونه، وشعر السائق بأهمية الموضوع حين سمع تعبير «رسالة مسجلة»، فمال على أذن الكاتب الورقي القلمي واقترب منهما المسن ليسمع، ولم أهتم أنا بسماع ما يقولانه لأنني كاتب القصة أصلا، وعلى الكومبيوتر مباشرة.

قال السائق إنه يضاجع زوجة المحصل سرًا.

نظر له الكاتب الورقي القلمي في ريبة، ونظر له المسن في إكبار، وهمَ الكاتب الورقي القلمي أن يسأله سؤالا لكن المسن سبقه وسأل السائق:

- بس بأمانة ربنا، بمجهودك؟ ولا فياجرا.

أخذ السائق نفسا عميقا من السيجارة، ونفخه في وجه المسن، فسعل المسن سعالا شديدا، فانتظره السائق حتى أتم سعاله، وقال له بهدوء:

- عيب عليك يا جدو.

الفتاة رفعت صوتها، وهي تكلم السائق:

- مش طالع يا أسطى؟

نظر السائق إليها في شهوة وقال:

- أخلص بس السوجارة يا أبلة.

الكاتب الورقي القلمي نظر إلى العجوز، وأشار بعينيه إلى بنطلونه وسأله:

- شغال؟

أومأ العجوز برأسه بالإيجاب في فرح وغرور.

هناك جمهور غفير للأفلام الجنسية التي يتم تصويرها في المدارس لبنات مع مدرسيهن باليونيفورم، لكن مخرجي هذه النوعية غالبا ما يُهملون بداية الفيلم وقصته، فلا تمر ثوان حتى يتجرد البطل والبطلة من ملابسهما ليصبح كأي فيلم جنسي عادي لا إبداع فيه.

أنا لست من هذه النوعية، لديك 4 رجال مع فتاة مميزة بتنورة كاروهات وقميص أبيض مفتوح الصدر كما تحبها، و1062 كلمة كمقدمة للفيلم، لم أقصر معك، فاصنع فيلمك كما تحب!

10 دقائق في رأس مدام سماح الطويلة..
«المليانة من تحت»

1800 جنيه × 19 شهر= 34200 جنيه، وتنتهي أقساط السيارة المخبوطة.

شاب مسرع خبط السيارة بالأمس، لمحته من البلكونة وهي تجمع الغسيل، وصرخت عليه، فوقف وأشار لها معتذرا، ونزلت مسرعة بشبشب الحمام بعد أن خطفت الموبايل والمفاتيح ورزعت باب الشقة خلفها.

لمحت عددا من الشعرات البيضاء في رأسها في مرآة الأسانسير، وفكرت للحظة أنها ستضطر إلى صبغ شعرها مبكرا، وتذكرت شعر أمها الأبيض كله، وشمت رائحة بول في الأسانسير، وخرجت مسرعة حين توقف الأسانسير في الدور الأرضي وجرت إلى الشارع فوجدت أن الشاب اختفى، ونظرت إلى سيارتها فوجدت الاكصدام مكسورا ومدلى على الأرض، وشنطة السيارة مخبوطة للداخل، والبواب يأتي متكاسلا من مدخل العمارة:

- هو فيه حاجة يا مدام سماح؟

لم ترد عليه، وقررت أن تتماسك ولا تبكي، ونظرت إلى البلكونة، فاكتشفت أنها تركت إحدى الملاءات معلقة بمشبك واحد.

رن موبايلها فقرأت اسم: الحاج رضوان الشقة.

لم ترد ونظرت إلى السيارة المخبوطة، والملاءة المرفرفة، وشبشب الحمام في قدميها، والبواب يحاول أن يعدل الاكصدام، فطلبت منه أن يتركه وأن يشتري لها علبة سجائر، وصعدت.

* * *

زملاء مدام سماح سمير الأجهوري في شركة الشحن والتفريغ الحكومية فرحوا من أسفل الترابيزة بخبر طلاقها، فالأستاذ يسري الأسمراني القصير يريد أن يتزوجها، والأستاذ مندور الأصلع رئيسها المباشر يحب أن ينظر لها من تحت وهي تتحرك بين المكاتب ويتخيل أنه «يزنقها» بعد انصراف الموظفين، وعبد الله الأبيضاني المتختخ الذي لا يناديه أحد بكلمة أستاذ لأنه أحدثهم في العمل يكلمها على الفيس بوك من أكاونت وهمي، ويخبرها أنه معجب برسمة جسدها الطويل المليان من تحت، فتصده وتغير الموضوع لكنها تظل تتكلم معه.

ثلاث سنوات مرت منذ حصلت على قسيمة طلاقها، ولم يتزوجها الأستاذ يسري الأسمراني القصير، لأنها قالت له:

- أنا بعزك زي أخويا هشام بالظبط يا أستاذ يسري.

ولم «يزنقها» الأستاذ مندور الأصلع رئيسها المباشر في المكتب، لأنها متعجلة دوما ومن المستحيل أن تظل حتى يخلو المكتب عليهما، ومازال عبد الله الأبيضاني

المتختخ يكلمها على الفيس بوك باعتباره شخصا آخر، وكلما تطرق الكلام إلى جمال قوامها بسبب كونه «مليان من تحت» تغير الموضوع.

دخلت البلكونة، سيطرت على الملاءة المرفرفة بصعوبة وأدخلتها، ورن تليفونها مرة أخرى - «الحاج رضوان الشقة» - فلم ترد أيضا، وأشعلت سيجارة، وخرجت ابنتها حبيبة ذات الأحد عشر عاما من غرفتها وكانت نائمة، فأطفأت سماح السيجارة وفتحت حبيبة التلفزيون، ورن التليفون مرة أخرى «الحاج رضوان الشقة» فقالت لها حبيبة:

- تليفونك بيرن.

ردت على التليفون، فهددها الحاج رضوان صاحب الشقة بالمحكمة لأنها لم تدفع الأقساط منذ 6 أشهر، وأن من حقه أن يطردها، كانت تسمعه وهي تفكر هل تغير الكوافير أم تغيّر نوع الصبغة، لأنها صبغته منذ أقل من شهر، وفكرت أنها لو تركت الأستاذ مندور الأصلع يتمادى قليلا فربما يسهل لها الحصول على بعض العمولات غير الشرعية فتتخلص من زن الحاج رضوان الشقة، الذي قال لها في نهاية المكالمة إنه فاهم الظروف لكنه هو شخصيا «عليه فلوس لناس».

الحاج رضوان أغلق غاضبا من عدم ردها بشكل يريحه، والأستاذ مندور الأصلع لو بدأ فلن يتوقف، والعمولات القليلة التي تنجح في الحصول عليها لا

تكفي سداد الأقساط، سيد الكوافير جيد لكن شركات التجميل تغش في الصبغة، وسعر اكصدام السيارة في التوكيل أغلى بكثير من سعره بتركيبه في الحرفيين، وبعد يومين سيتصلون بها من أجل قسط النادي، وبعد شهر موعد قسط مدرسة حبيبة، وحبيبة كبرت، قامت لتدخل الحمام، والتلفزيون يعرض فيلما أجنبيا به بطل يقبل بطلة ويضع يده تقريبا على مؤخرتها، فكرت كيف يسمحون بمثل هذه المناظر في التلفزيون، وفكرت أن البطلة مضطرة لمثل هذا الحضن من أجل فلوس الأقساط لأن الحياة في أمريكا باهظة الثمن، تذكرت أنها قرأت أن معظم الأمريكيين في أزمة بسبب الأقساط والفوائد، وتخيلت أنها أمريكية، وأنها مكان البطلة، وركبت وجوه الأستاذ يسري الأسمراني القصير ثم الأستاذ مندور الأصلع ثم عبد الله الأبيضاني المتختخ مكان وجه البطل، وتذكرت أن الشاب الذي صدم سيارتها كان وسيما، وأنه يشبه طليقها إلى حد ما، وفكرت أنها ربما ترجع له لو عرض عليها الرجوع، وفكرت أنه لم يعرض أبدا.

انقطع النور فجأة، وطرق باب الشقة فقامت بتثاقل وفتحت فوجدت البواب والسجائر، أعطته النقود وأغلقت الباب.

الحاج رضوان الشقة يكلف البواب بمراقبة كل تحركاتها وضيوفها، زوجة البواب أخبرتها، وقالت إنهم لا

ينفذون كلامه، وإنه راجل بخيل، وإنها أكرم منه، وضحكت ببلاهة وخجل وهي تقول:

- عشان متطلقه يعني لامؤاخذه يا مدام.. وبتشربي سجاير.

خرجت حبيبة من الحمام، وقالت:

- مين؟

نظرت لها سماح بتأمل من بعيد، حبيبة كبرت، وأصبحت طويلة.. فكرت لو كلمت هشام أخوها وطلبت منه سلفة سابعة.. حبيبة أصبحت أطول من كل زميلاتها، وظهرت عليها ملامح أنوثة مبكرة.

تأملت نصف ابنتها السفلي المرسوم بامتلاء خفيف، وفكرت أن حبيبة تشبهها، وأنها ربما تعاني مثلها، وربما كان سيد الكوافير هو الذي يخفف الصبغة، وتذكرت أنها لمحت الشاب الذي صدم سيارتها قبل ذلك وحاولت أن تعصر مخها لتتذكر أين رأته دون فائدة.

حبيبة بها ملامح من طليقها لكنها أخذت طولها وجسمها هي، وبعض ملامح الشاب الذي صدم السيارة، وأخوها هشام لم يفكر في التدخل مطلقا لحل الخلافات بينها وبين طليقها، لكنه لا يتذمر من منحها السلفة تلو السلفة، وزوجته غادة هي التي وصفت لها سيد الكوافير أول مرة، ولم تعد تذهب إليه، أو إلى أي كوافير آخر.

«فكرت في تحرير محضر في الشرطة للشاب الذي لا تعرف اسمه أو رقم سيارته لكنها يمكن أن تصف لهم

ملامحه، أو تخرج لهم الصور القليلة لها مع طليقها وتخبرهم أنه يشبهه، فكرت هل تأخذ معها حبيبة إلى القسم أم لا، ثم استبعدت الفكرة كلها لأنها «عبيطة»، وأن الشرطة كلها لا جدوى منها، وفكرت أنه يجب أن تكون هناك جهة لحل مشاكل الناس، وقالت لنفسها إن هذا صعب لأن المشاكل كثيرة ومتنوعة ولا رابط بينها».

سألتها حبيبة:

- إنتي هتفضلي واقفه ولّا هتنامي؟

قالت لها سماح وهي ترمي علبة السجائر بجوار التلفزيون.

- هنام.

وأشارت لحبيبة لتقترب منها، فظنت حبيبة أنها تريد أن تحضنها، فحضنتها، ولم تركز سماح في الحضن وهي تقيس طول حبيبة بها، ووجدت أن رأس حبيبة عند أعلى صدرها، وخافت أن تصبح حبيبة أطول منها، وتعجبت حبيبة في حضنها، ونظرت لها، فوضعت يدها على كتفها، وضمتها وهما متجهتان إلى غرفة النوم، ودخلتا، وأغلقت حبيبة الباب خلفهما!

منال أو منار

ستفاجئها بأنك تكتب قصة عنها، فتفرح وتلمع عيناها، وتشترط عليك أن ترسلها لها قبل أن تنشرها، فتوافق أنت، وتعطيك هي تعديلاتها على النص باعتباره قصتها الشخصية.

تقول لها إنك ستسمي القصة منل باسمها فترفض هي تماما:

- «إنت كده هتفضحني يا عم.. كل الناس اللي إنت تعرفهم عارفين إنك عارفني وهيعرفوا إنها مكتوبه عني».

تخبرها أنك ستغيّر اسمها إلى اسم له نفس الوقع، منار مثلا، فتضحك بشدة:

- «ياسلام على الرمزية.. معرفتكش أنا كده».

تبدأ الكتابة عنها وأنت بمفردك، فتكتب:

لا تحب عبد الحليم حافظ، وتفضل عليه دجاج كنتاكي، تحتفظ في حقيبتها بكتاب أحيانا وبزجاجة مياه أحيانا وبالاثنين معا أحيانا، تطلب المياه من الكشك وهي تقول للرجل: «من الكرتونة مش التلاجة»، وتتجاهل نظرته للفرق الصغير الواضح بين نهديها، في البيت تقرأ الكتاب بشغف وهي تشرب مرتدية بيجامة رجالية مريحة، ثم تحبطها النهاية مثل كل مرة، فهي لا تحب النهايات المعتادة.

ترسل لها هذا المقطع فتعلق:

- بص، خليها لا تحب محمد منير، عشان عبد الحليم أنا فيه أغاني بحبها له، وخليها تطلب البيبسي هوا اللي سخن من الكشك مش الميه، عشان عادي فيه ناس كتير بتشرب الميه سخنة، لكن أنا بس اللي بحب البيبسي سخن، عشان الصودا فيه بتبقى أوضح، حتى الناس كلها بتستغرب، وبتقولي هوا فيه حد يشربه كده، ده حتى مكتوب عليه «يحفظ باردا»..

كمان أنا مبلبسش بيجامات رجالي، أنا بلبس في البيت هدوم الخروج اللي مبقيتش بخرج بيها.

تعجبك تعليقاتها فتقرر أن تضمنها للقصة نفسها، دون أن تخبرها حتى تخرج ردودها تلقائية.

البداية كانت في عرض راقص في المسرح الصغير بالأوبرا، هي ترقص فوق المسرح وأنت تجلس وسط الجمهور، دون أن يعرف أحد أن هذا هو لقاؤكما الأول، بعد ساعات طويلة من الحديث على الإنترنت، كل منكما يحاول الإيقاع بالآخر، دون أن يدرك أنه هو شخصيا مستهدف بشكل فادح.

تجلس هي أمامك في «بينوس» بالزمالك وتقرأ قصتها وهي تبتسم، تطلب منها أن تعلق على كل مقطع، فتقول:

- المقطع ده حلو، وجملة «مستهدف بشكل فادح» دي عجبتني قوي.

مخرج العرض رافقك بنفسه حتى مقعدك المميز في مقدمة المسرح حين قلت له: «أنا تبع منار»، وظللت طوال العرض تحاول أن تتحرك بشكل يلفت انتباهها إليك، لأنها تكسر كل القواعد في حياتها، فطبيعي ألا تلتزم بقاعدة الحائط الرابع.

تطلب هي موكا باردة تشربها وهي تقرأ، ثم تقول:

- طب إنت عارف، أنا أصلا اتخانقت مع المخرج عشان كنت عاوزاه يقعدك قدام أكتر، كمان بص، حاول تغير حكاية الحائط الرابع دي عشان تحسها متخصصة قوي، فيه ناس كتير ممكن ميفهموهاش.

تلمحك بالفعل، وتمنحك ابتسامة واسعة، لن يدرك أحد من الجمهور أنها موجهة إليك مباشرة، لكنها تستدير في حركة مفاجئة، فلا تلمح ابتسامتك الرد.

يرن هاتفها فتنتشر نغمته الجميلة في المقهى الزجاجي كله، تغلق هي صوته دون أن تنظر في الشاشة:

- إنت خدت بالك إن أنا فعلا ضحكت لك، أنا حددت مكانك وكنت ببص عليك وأنا فوق، هوا أنا في العادي ببقى مبتسمة وأنا برقص، بس بضحك لما بيبقى فيه في حد عزيز عليّا في الصالة.

الاسم القديم التقليدي «العواجيزي»، والمتضمن لقوة وتحد ما، صبغ شخصيتها بملامح مختلفة عن أي فتاة يمكنك أن تتعرف عليها، ظلت ترقص بعنف كأنها

تتخلص من كل المعاكسات الإباحية التي سمعتها في طريقها إلى المسرح، وحين يصفق لها الجمهور الكبير تلمع عيناها بدرجة يمكن أن تغشي عين آخر من يجلس في القاعة الواسعة!

لأ خالص، أنا مبفكرش في كده وأنا برقص، شيل دي، ممكن تكتب إن أنا أصلا ببقى فرحانة في عروض الرقص أكتر من التمثيل، بحس إن ممكن أي حد يمثل، لكن مش أي حد بيعرف يرقص، خصوصا إن الرقص اللي أنا برقصه قليلين قوي في مصر اللي شاطرين فيه، اكتب إن أنا بحبني أكتر وأنا برقص.

سينتهي العرض وتخرج أنت مرتبكا غير متخيل أنها ستترك كل هذا الصخب وتأتي إليك بهدوئك الذي تشعر للمرة الأولى بأنك تريد أن تكسره حتى تدخل في دائرة الضجيج حولها، تشعر فجأة أن صمتك الذي لن تتمكن من التغلب عليه في المرة الأولى سيحبطها فتنتظرها بالخارج 5 دقائق تدرك أنها ليست كافية حتى لتغيير ملابسها، ثم ترسل لها رسالة على هاتفها المحمول: «أنا مشيت»، وتنصرف بالفعل.

- إيه ده؟ الجملة الأولانية دي من أول «سينتهي العرض» لحد «دائرة الضجيج حولها» دي طويلة وتقيلة، تحسها لافّة كده ومرتبكة، حاول تعيد صياغتها تاني.

تضحك، وتضربك على كتفك:

- ولما إنت يا ابن اللذينة عارف إن الـ5 دقايق مش هيكفوا إني حتى أغيّر هدومي بتمشي ليه؟

تصمت هي قليلا وتتذكر الموقف نفسه ثم تستدرك:

- لازم تكتب إني لما سألتك يومها إنت بعت الرسالة دي ليّه، قلت لي: ومين اللي قالك إني كنت همشي أصلا.

وأنت على باب الأوبرا يرن تليفونك ويظهر اسمها على الشاشة: «Manal»، ترد فيأتيك صوتها شهيًا:

- «إنت فين؟.. يا سلام؟ طب استنى عندك، اوعى تتحرك».

لا تتحرك، وتبتسم لأنها تكلمك بهذه الطريقة.

تأتي سريعا وتسلم عليك وتقبّلك ببساطة كأنها تعرفك منذ سنوات، تتأملك من فوق لتحت ثم تلمع عيناها وتبتسم، وتعتذر عن التأخير، ثم ببساطة تخبرك بأن القميص «الذي اشتريته خصيصا من أجل الموعد) «لونه وحش».

- إيه ده؟ هو انت فعلا كنت لابس قميص جديد عشاني؟ أنا أول مرة أعرف كده، مش مهم لونه كان حلو ولا وحش، بس دي حاجة حلوة إنك تبقى جاي أول معاد لينا وإنت لابس حاجة جديدة، أنا اتبسطت قوي دلوقتي، طب أنا كمان فيه حاجه لازم أقولهالك بقى مادام إنت قلت كده، أنا من أول ما خرجت من باب المسرح كنت بجري عشان خايفة لحسن تمشي، ولما

قربت منك هديت كده وعدلت هدومي عشان متعرفش إني كنت بجري.

تخرجان من باب الأوبرا معا، وتتوقفان أمام الكشك، تطلب هي بيبسي ومياها «مش من التلاجة»، وتطلب أنت بيبسي «من التلاجة»، وتكتشف أنت فجأة أنك نسيت نقودك في البيت، فتدفع هي ببساطة، وتمسك بيدك وأنتما تعبران الطريق، ثم تتركها على أول كوبري قصر النيل، وأنت تختلس نظرات جانبية لها وهي تسير في جمال غير مبالية بالزحام الشديد الذي يفرقكما كل قليل، تحكي عن العرض وعن حبها للكتب، وعن كتابك الأخير الذي تعرفتما بسببه.

- لأ إنت كده نسيت، إنت اللي عزمتني على البيبسي والميه، مش أنا اللي دفعت، كمان ممكن تقول عن الكتاب اللي أنا عرفتك بسببه، إني لما قريته أصلا تخيلتك واحد مختلف خالص عنك، أنا كنت متوقعة إن الكاتب ده مثلا عايش برة وليه شكل معين واستايل مختلف كده، وقول إني اتصدمت لما لقيتك إنت.

تضحك قليلا، وترجع بظهرها إلى الخلف فيلتفت شاب يجلس بمفرده ويدخن على منضدة قريبة، ثم تقول:

- متزعلش متزعلش، أنا بهزر.

تلمح صمتك وابتسامتك المشجعة فتحكي عن نفسها، وعن بيتها في كوبري القبة التي تحب أن تسميها مصر الجديدة، تتحدث عن الحر الشديد والرطوبة وعن أنها تفضل الحمام ساخنا صيفا وشتاء، وأنها بحثت عن اسم مخترع السخان على جوجل، وأرسلت رسالة امتنان له على صفحتها على الفيس بوك قرأها كل من يعرفها إلا المخترع الذي أرسلت إليه.

- إيه ده؟ إنت عرفت منين إن أنا فعلا دورت قبل كده على اسم مخترع السخان، والله أنا عملت كده، بس نسيت اسمه دلوقتي، وقلت حرام نبقى عارفين أسامي مخترعين كتير وهوا مش من ضمنهم..

كمان إنت ممكن تقول عن بيتي إن أنا بسميه الجزيرة، عشان لو مشيت يمين وسط البلد، شمال مصر الجديدة، على طول مدينة نصر، وأنا بحب إني أكون قريبة من كل المناطق اللي بحبها.

أخبرتك أنها تدخن «بس مش قوي»، وأنها لا تفضل أن تشتري لها دبدوبا أحمر في عيد ميلادها الذي سيأتي حتى لا تلقيه في وجهك، وأنها كانت «مصاحبة» لكنها الآن «سينجل»، وأنها لا تفكر في الزواج منك «عشان متشغلش دماغك بالقصة دي».

- أنا أصلا كنت بدخن عشان بحب شكلي وأنا ماسكة السيجارة بس، ومقعدتش كتير، محبتهاش، وإيه حكاية

عيد الميلاد دي؟ إنت حطيتها ليه؟ ده كان لسه بدري قوي على عيد ميلادي في شهر 4 واحنا متقابلين في 9، بس إنت عارف إني فعلا مبحبش الدباديب والجو ده، أنا بحب الهدايا المفيدة، يعني ممكن تجيب لي حاجه ألبسها، أو حتى تخرجني، هيبقى أحسن بالنسبالي.

اقتربتما من ميدان عبد المنعم رياض، فلمحت هي الميني باص الذي سيوصلها إلى البيت، فأشارت إليه وقالت: «39 أهوه»، اتجهتما إليه وقبل أن تصعد سألتك:

- «طب إنت معاك فلوس تروَح؟».

انتبهت إلى أنك نسيت نقودك، وتحسست جيوبك، ثم هززت لها رأسك نافيا.

سألتك وهي تربت ذراعك كأنها صديق قديم:

- طب عاوز كام؟

أخذت منها أربعة جنيهات، وأنت تبتسم بحرج، فنظرت لك لائمة:

- «عيب كده».

صعدث إلى الميني باص، ووقفت أنت أسفل الشباك الذي جلست بجواره، أشارت لك مودعة، فابتسمت لها فابتسمت، أطلت النظر إليها، حتى بدأ الميني باص في التحرك، قلت لها مسرعا:

أنا هكتب عنك قصة.

ابتسمت ابتسامة واسعة وقالت:

- بس بشرط، تخليني أقراها قبل ما تتنشر.

أومأت لها برأسك موافقا، وأنت تبتسم، ففرحت ولمعت عيناها، بدرجة أنارت الميدان كله.

- مش هو ده اللي حصل، إنت ركبت معايا وجيت وصلتني لحد البيت، وكمان إنت اللي دفعت لي في الميني باص، احنا ركبنا 39 مع إن أنا في العادي بركب 35، وقلت لك ساعتها إن 39 بيلف شوية، وده هيخلينا نقعد مع بعض وقت أطول حبة عشان نتكلم مع بعض، هو بياخد ييجي تلت ساعة أزيد لو الطريق زحمة، وحوالي 10 دقايق لو السكة رايقة..

بعد ما نزلنا بقى، وإنت بتسيبني إنت قلت لي أنا عاوز أقولك حاجة غريبة، أنا قلت لك إيه؟ قلت لي: أنا نسيت محفظتي قبل ما أنزل ومكانش معايا غير شوية فلوس قليلين، ودلوقتي معيش ولا مليم..

أنا قلت لك: عاوز كام؟ فإنت قلت لي: هاتي 2 جنيه، قلت لك: هيكفوا؟ قلت لي: خلاص خليهم 3، فأنا طلعت كريمة معاك واديتلك 4 جنيه..

وبعدين إنت قلت لي إن إنت هتكتب قصة عني، فأنا قلت لك: بس توريهالي قبل ما تنشرها، فإنت قلت لي ماشي، فأنا ابتسمت، لكن مش عارفه حكاية إن عينيا لمعت لحد ما نورت المكان كله دي بصراحة حصلت ولا

لأ، لكن لو عموما إنت شايف إن ده حصل، يبقى مش هقدر أقولك لأ!

زحام

سيارة ميكروباص تصعد مطلع كوبري 6 أكتوبر في آخر البطل أحمد عبد العزيز ببطء شديد بسبب الزحام، معلق عليها من الخلف ورقة مكتوب عليها: «للبيع بجد.. كيا موديل 99 آلات جر تويوتا 2003 رخصة سنة.. المخابرة مع السائق».

المفروض أن خط سير الميكروباص في السيرفيس كالتالي: (بولاق الدكرور – شارع السودان – شارع جامعة الدول – كوبري 15 مايو – الإسعاف) والعكس، لكن الأسطى ياسر برشامة، وهو راجع في الدور السابق شاهد سيارة نصف نقل مقلوبة على الجانب الآخر في ميدان سفنكس مما أوقف الطريق العائد تماما، فسب الدين، ثم قرر أن يأخذ الفردة التالية وهو عائد عن طريق البطل أحمد عبد العزيز، ثم كوبري أكتوبر، وربنا يفرجها في نزلة التحرير.

اصطباحة الأسطى ياسر هذا الصباح كانت مضروبة، فسب الدين للولد ناصر الحرامي الذي أعطاه نصف إصبع حشيش مضروب مخلوط بإسبرين وحناء، وقرر أن يتشاجر معه حين يراه في المساء، ثم لام نفسه وقال إن طفلته الرضيعة شهد كانت أولى بهذه النقود، ثم قرر أن يشري لها في المساء علبة لبن «نان 2» من الصيدلية، ثم تذكر زوجته صفاء، فسب لها الدين ولصدرها الذي جف منه اللبن بعد الولادة بشهر ونصف.

فكر ياسر حين رأى السيارات حوله لا تتحرك كأنها في جراج كبير أنه ربما لو أخذ طريقه العادي لكان أفضل، وفكر في شهد التي بدأت الكلام وتقول: با ما با با، فابتسم، ثم كشر، ورفع فرامل اليد، وسب الدين للزحام وسفنكس و6 أكتوبر وللسيارات النصف نقل بوجه خاص وللسيارات كلها بوجه عام!

بجوار الميكروباص تصعد بنفس البطء سيارة ملاكي شيفروليه أوبترا سوداء اشتراها الباشمهندس حسين بالتقسيط على 60 شهرا بزيادة 23 ألف جنيه عن سعرها الحقيقي من بنك NSGB، ورفض المحاسب أن يكتب حرف الميم بجوار اسمه في أوراق البنك لأنه خريج كلية حقوق وليس هندسة، وتحايل حسين على مبلغ التأمين الإجباري ضد الحوادث واختار أقل شريحة تأمينية لا تغطي شيئا تقريبا، وعندما لامته إيناس زوجته قبّلها على خدها كما يفعل عندما يريد أن ينهي مناقشة بينهما وقال لها: إن الساتر ربنا.

حسين يعيش حياته كلها كباشمهندس حقيقي لدرجة أنه اشترى خوذة ووضعها بشكل يظهر من الزجاج الخلفي للسيارة، وحين يعرّف نفسه لأي شخص لا يعرّفه يقول له: الباشمهندس ياسر، وزملاؤه في العمل في سيراميكا كليوباترا لا ينادونه إلا بالباشمهندس لأنه يرسم تصميمات السيراميك.

ركن حسين السيارة منذ أن اشتراها وذهب إلى مدرسة لتعليم القيادة، ونفذ نصيحة زميله الباشمهندس

تامر، وتعلم على سيارة مانيوال رغم أن سيارته أوتوماتيك، لأن من يتعلم على مانيوال ستصبح الأتوماتيك بالنسبة له مثل سيارة الملاهي، هكذا قال تامر.

أنهى حسين دورة القيادة، لكن قيادة الأوبترا كانت أصعب بكثير من سيارة الملاهي، فأصبح يقودها بحذر شديد لمدد قصيرة يوميا، تمهيدا لمشوار المرور، ثم تهور أكثر وصار يذهب بها إلى العمل أحيانا، دون حتى أن تكون معه رخصة قيادة، وعندما لامته زوجته إيناس ضربها على مؤخرتها برفق كما يفعل عندما يريد أن يتباهى بنفسه، وقال لها إن ابن خالته ضابط الشرطة سيخرجه من أي مشكلة.

دخل عم عبد الرسول بمقشته وأفروله الأخضر بين الميكروباص والأوبترا وهز المقشة كأنه يكنس الأسفلت، وهو ينظر في عين الباشمهندس حسين الذي نظر إلى الجهة الأخرى متجاهلا نظرات عم عبد الرسول المتوسلة، وعبد الرسول يفكر في جهاز أسماء، لأن أم أسماء تؤنبه يوميا، وأسماء تخبره أنها «تستعر» لأنه «كناس».

المفروض أن أسماء خرجت من بيتها في بولاق الدكرور وتمشت في شارع ناهيا وصعدت كوبري المشاة المزدحم ونزلت في شارع السودان وركبت الميكروباص الكبير الـ26 راكب (كوبري الخشب - جيزة) الذي ارتفعت أجرته من 75 قرشا إلى جنيه ومن جنيه إلى جنيه وربع

بعد مشاجرات طويلة بين الركاب والسائقين انتصر فيها السائقون، لتقف وهو يلف أمام الفنون التطبيقية لتقول للسائق: «الباب الرئيسي لو سمحت، وتنزل وتدخل الجامعة وتحضر محاضرة المحاسبة الحكومية التي لا تفهم منها شيئا، ثم تخرج من باب التجارة وتشتري ملزمة المراجعة بـ14 جنيها، كما قالت لأبيها في الليلة السابقة، فترك لها 17 جنيها،14 للملزمة و2 ونصف للمواصلات و50 قرشا للظروف.

أسماء لم تفعل من هذا سوى أنها خرجت من بيتها في بولاق الدكرور، وتمشت في شارع ناهيا، وقابلت شريف الذي يقف في محل الموبايلات المجاور لبيتها، والذي تعرفت عليه بعد أن ترددت على المحل أكثر من مرة لأنها اكتشفت أنه يبيع كروت الشحن بالسعر الرسمي، ويشحن على الهواء الخمسة بخمسة، ولأنه في المرات الأولى كان حين يشحن لها يسألها: «كام الرقم يا جميل»، فتبتسم رغما عنها، فينظر في عينيها ويبتسم، وفي المرة الثالثة أرسل لها رسالة نصية كتب فيها: «التحيه اللي جايه مني دي عشان بس أقولك إنك عسليه يا عسليه»، ثم أرسل لها رصيدا بخمسة جنيهات.

اتصلت أسماء بشريف على تليفون المحل لتشكره على الخمسة جنيهات التي أرسلها لها، ولم تغلق الخط إلا حين انتهت الجنيهات الخمسة، فحاولت الاتصال مرة أخرى فأتاها الصوت الآلي يخاطبها بلهجة المذكر: عفوا،

رصيدك الحالي لا يكفي لإتمام المكالمة، برجاء شراء كارت شحن وإعادة المحاولة.. تيت تيت تيت.

ذهبت أسماء إلى شريف في المحل فوجدت معه فتاة أخرى بمفردهما ولم تدر على وجه الدقة هل كان يقبّلها أم أنها تخيلت لكنها دخلت ونظرت لشريف نظرة الزوجة المخدوعة، ثم جرت وشريف يتابعها بنظراته.

وقفت أسماء في موقف الميكروباصات تبكي غير عابئة بتحرشات لفظية من 3 تباعين وسائق واحد وسبعة مواطنين عاديين حتى رن تليفونها برقم شريف فلم ترد إلا في المرة الخامسة وأخبرته بمكانها فأخبرها أنه «جاي حمامة».

استدار عبد الرسول فلمح سائق تاكسي بلحية كبيرة، فقال في سره: «أعوذ بالله»، فهو يكره كل الملتحين بسبب الشيخ طارق جاره الذي يقابله في النزلة والطلعة ويطلب منه بلزوجة تغيير اسمه لأن الرسول لا يعبد من دون الله، ولأن اسم عبد الرسول هو شرك بيّن، ولأن عم عبد الرسول لم يعتد أن يتشاجر مع أحد فإنه يهز رأسه له بنفس الطريقة كل مرة وينصرف!

اتصلت إيناس بحسين وطلبت منه أن يمر على كارفور وهو راجع، وأن يشتري عبوة بامبرز حجم توفير مقاس 4 من أجل شهد لأنها «بتسهل»، وعلبة برسيل جيل لأن عليها عرضا علبة صغيرة مجانا، ومعجون أسنان سنسوداين لأن الأنواع الأخرى «بتسيب ريحة

البق وحشه»، وأن يشتري جبنة رومي ولانشون وفلمنك وشيدر ومخلل من أجل الساندوتشات.

لم يتمكن حسين من حفظ كل الأصناف فصرخ في إيناس بأنه ليس «دليفري» وأنه لن يتذكر كل هذا، وأن ترسل ما تريد على «الواتس آب».

شريف أمسك يد أسماء وأنكر تماما أي علاقة بينه وبين فتاة المحل وعرض عليها أن يذهبا إلى الكورنيش، فسألته عن المحل فأخبرها أنه ترك أخاه واقفا، وسأل شريف شابا وقال له: «يا شبح» عن «العربية اللي طالعة»، فأشار له الشبح الذي لم يكن سوى الأسطى ياسر برشامة، فركب شريف وأسماء وبرشامة نظر إلى مؤخرتها وسب الدين للمؤخرات الكبيرة!

عبد الرسول صرف نظره عن السائق الملتحي وخبط على زجاج المهندس حسين وهو يشير إلى فمه بمسكنة بأنه جائع، وحسين يصرفه بيده وبرشامة يراقبه.

شريف وأسماء يجلسان في الكرسي الخلفي وبجوارهما عجوز نائم و3 أطفال، وشريف يحاول أن يقبل أسماء وهي تتمنع وتشير له إلى الناس، فيسب الناس.

عبد الرسول ترك حسين ووقف أمام سائق السيارة المجاورة لأسماء وشريف يمد له يده.

إيناس أرسلت رسالة بالطلبات على واتس آب حسبن.

تبّاع سيارة برشامة أخبره بأن السيارة «لبن» في الخلف، وأشار له إلى شريف وأسماء.

شريف يحاول أن يقبل أسماء.

حسين يقرأ الطلبات.

برشامة ينظر إلى شريف وأسماء في المرآة وهو يرفع رجله من على الفرامل ويضغط «سنة» بنزين.

عبد الرسول بجوار أسماء والرجل يمد يده له بجنيه معدني.

برشامة يصدم سيارة حسين.

موبايل حسين يسقط في الدواسة.

عبد الرسول يستدير ليرى الحادث.

شريف يرفع شفتيه من فوق شفتي أسماء.

عبد الرسول وأسماء تلتقي عيناهما وهو يتسول وهي في حضن شريف!

برشامة وحسين ينزلان.

وتبدأ المعركة!

حقيقة انتحار شمس راضي التي اسمها حنان أصلا

لا أحد على الإطلاق يعرف أن شمس راضي انتحرت.

شمس راضي ليس اسمها الحقيقي، شمس هو اسم زميلتها في الثانوية العامة، كانت صديقتها المقربة وكانت تحبها جدًا، وراضي هو اسم أكبر سوبر ماركت في منطقتهم، كان أبوها يرسلها إليه وهي في رابعة ابتدائي فتشتري ثمن بسطرمة و10 أرغفة فينو وعلبة سجائر بلمونت وزجاجة بيبسي لها.. كل هذا بخمسين قرشا.

أصلا، اسمها حنان، لكنها حين فكرت في لحظة عابرة أن تصبح ممثلة بعد مشاهدة سعاد حسني في فيلم خلي بالك من زوزو، وجدت أنه ينبغي أن يكون لها اسم شهرة فني، فركبت الاسم ذي المقطعين، من أقرب الأسماء إلى يديها، ثم تراجعت عن فكرة التمثيل بعد علمها بخبر مقتل سعاد حسني في لندن!

حين كبرت ودخلت أولى ثانوي رافقت حسين راضي ابن عم راضي صاحب السوبر ماركت، قضيا معا أولى وثانية وثالثة ثانوي، وقبل امتحان الثانوية العامة بشهر تركها ليخطب شمس زميلتها، كانت تأخذها معها وتشتري زجاجة بيبسي صاروخ لتقف مدة أطول أمام المحل لتكلم حسين حين يكون واقفا بمفرده في المحل ولا يمكنه أن يتركه ليقابلها، كانت شمس لا تنظر إلى

حسين وحين حاول أن يمد يده ليصافحها، لم تمد يدها، فحاولت حنان أن تتدارك الموقف فسلمت هي عليه وأخذت يده في يدها، وقالت وهي تضحك: معلش أصلها مبتسلمش على رجاله عشان وضوءها ميتنقضش.

غضب حسين من تصرف شمس، وقال لحنان: متجيبيش البت دي معاكي تاني.

صارت تذهب بمفردها، وتدخل المحل حين لا يكون هناك زبائن، فيحضنها حسين ويقبّلها خلف ثلاجة العرض الكبيرة، لكن بشرط أن يكونا منحنين قليلا حتى لا تبين رأساهما، فارتبطت لديها لحظات المتعة دائما برائحة الجبن الاستامبولي والزيتون والبسطرمة والفلفل المخلل، وبصوت أزيز الثلاجة العالي.

اشترط حسين على والد شمس الحقيقية أن تكتفي بالثانوية العامة، وألا تذهب إلى المدرسة حتى يتزوجا بعد الامتحانات بستة أشهر، فوافق الأب وقرآ الفاتحة، وارتفع صوت زغرودة عالية من الداخل. أخبرت شمس الحقيقية حسين فيما بعد أنها هي التي أطلقتها، وأخبرته أنها كانت تحبه منذ ذهبت إلى المحل للمرة الأولى، كانا بكرين ولم يتمكنا من فض بكارتهما إلا في الليلة الثالثة، وهما يبكيان من الفرحة!

بمجرد أن أعلنت خطوبة حسين وشمس فتحت حنان الصندوق الخشبي الأبيض المعلق بجوار باب شقتهم من الداخل والمرسوم عليه بالأحمر هلال كبير مكتوب

أسفله بخط كبير لا مبرر له: صيدلية بالعربي وبالإنجليزي، تناولت أربعة أشرطة دواء لا تعرف اسمها فتحتها جميعا وأفرغتها في كوب زجاجي، وألقت بالفوارغ من النافذة، وبلعتها جميعا بزجاجة دواء كحة توسيفان، كانت تنوي الانتحار، لكنها لم تمت، فقدت الوعي ليوم كامل ظنوها فيه نائمة، تكرر حلم أكثر من مرة في نومها: كانت تركب تاكسيا بجوار رجل كبير لا تعرفه، ثم نزلت الملاهي، وركبت بساط الريح الذي كانت تتمنى أن تركبه وهي صغيرة، لكن صراخ النساء والفتيات اللواتي ركبنه منعها من أن تركبه وهي صغيرة، ارتفع بها عاليا جدًا في الحلم، حتى انفصل عن القواعد التي تثبته في الأرض، ثم ارتفع حتى اختفت مدينة الملاهي كلها، شعرت أنها سعيدة وأن روحها تطير إلى السماء، فقالت: أنا مش عاوزة أموت!

وعندما أفاقت قالت: يلعن أبو الاتنين، بياع طرشي معفن، وبت جاهلة، وضحكت، وانخرطت في المذاكرة حتى تنسى، فحصلت على 85% ودخلت آداب عبري.

كانت قد شربت زجاجة التوسيفان كاملة، ووضعتها في العلبة الكرتون وأغلقتها مرة أخرى ووضعتها في نفس مكانها في الصيدلية، فظل أبوها حتى وفاته يعتقد أن الصيدلي خدعه وباعه العلبة فارغة، لأنه اشتراها ووضعها في الصيدلية الخشبية دون أن يفتحها، لم تعرف هي أبدا نوع الأشرطة التي تناولتها، ولم يبق من هذا اليوم سوى شعورها بأنها تحب الحياة،

وأنه لا يوجد شخص يستحق حبها، وسوى قصة التوسيفان التي يحكيها الأب دائما ليدلل بها على غش الصيدليات!

الرسالة قبل الأخيرة إلى هديل

«رأيتك بالأمس.

كنت جميلة ومثيرة كالعادة في الفستان القصير الأسود الذي رأيتك به في أول مرة، لدرجة أنني فكرت للحظة أن أتناسى كل ما حدث بيننا وأن أقترب منك، وأضع يدي على كتفك وأن أسير بجوارك بهدوء حتى لا تضطري إلى توسيع خطوتك لمجاراة خطواتي، أعلم أنني لو فعلت ذلك لنسيت أنت كل ما حدث ولاستندت برأسك إلى كتفي فضممتك إليّ أكثر، وعدنا إلى بعضنا البعض دون كلمة كما يحدث في كل مرة».

لا أخفيك أنني افتقدتك، وأن ما حدث لي منذ رأيتك للمرة الأخيرة يشبه انهيارات متتالية كفيلة بإسقاط جبل ضخم مثل المقطم مثلا على رءوس سكانه، لكن لأنني إنسان ولست جبلا، حدثت الانهيارات كلها داخلي، فماتت أشياء كثيرة بداخلي، وأتت شرطة الإنقاذ والإسعاف وكاميرات الفضائيات لتصورني من الداخل فلم يتمكنوا في النهاية إلا من إنقاذ شريط ذكرياتنا معا!

هذا الفستان الأسود الذي ترتدينه ذكّرني بجلوسنا ملتصقين في المرة الأولى في الحفل الموسيقي، فكرت يومها ألا أذهب إلى الحفل، كنت مجهدا وقررت أن أذهب إلى البيت لأنام، لكن قوة عليا جذبتني إلى الكرسي المجاور لك تماما!

كان يمكن أن نجلس متباعدين أكثر، لكن كلا منا كان يبحث عن حضن يرتمي فيه وعن دفء يذيب جليد حياته في لحظة، وهكذا منذ التصقنا في هذا اليوم لم نفترق إلا في المرة الأخيرة التي ظننتها ستكون عابرة وقصية مثل كل مرة.

فكرت أن أتناسى كل ما حدث، أو أن نبدأ بداية جديدة فأنت بالنسبة لي كالمدينة المألوفة، أعرف مداخلك ومخارجك، ويمكنني مثلا أن أقف أمامك مباشرة بحيث تفاجئين بي فترتمين في حضني وينتهي كل شيء.

عامان كاملان من القرب لا تبددهما 4 أشهر من الفراق، فكرت أيضا أن أقف خلفك مباشرة وأن أرسل لك رسالة على تليفونك المحمول نصها: استديري فأنا خلفك!

هذه الحركة كفيلة بأن تنتزع منك ضحكة كبيرة، ألمحها في عينيك قبل أن أسمع صوتها، وأنت بمجرد أن تضحكي ينتهي كل شيء!

***